٢٤

مفاتيح الدارين

في وصية أمير المؤمنين

عليه السلام

عبد النافع الموسوي

ديوان الوقف الشيعي
العتبة الكاظمية المقدسة

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٤٣٩) لسنة ٢٠١٥م

هوية الكتاب

اسم الكتاب: مفاتيح الدارين في وصية أمير المؤمنين عليه السلام.

المؤلف: عبد النافع الموسوي.

الناشر: الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة - الشؤون الفكرية والثقافية.

المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر.

التاريخ: ١٤٣٧هـ - ٢٠١٥ م

موقع العتبة: www.aljawadain.org للمراسلة: fikriya@ aljawadain.org

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقهِ وسيّد بريّتهِ محمدٍ الأمين، وعلى آل بيتهِ الطيّبين الطاهرين، لاسيما بقيّة الله في أرضه الحجة بن الحسن العسكري إمام العصر والعالمين..

كثيرة هي الآيات القرآنية والأحاديث المروية عن أهل بيت العصمة عليهم السلام التي تحثنا على اتّباع الرسل والأنبياء والأوصياء، فالله عز وجل قد خلق الموتَ والحياةَ ليبلُوَنا أيّنا أحسنُ عملاً، ولأنه عزّ وجلّ رؤوفاً بعباده رحيماً بهم؛ فقد أرشدنا إلى سبُل النجاة وعوامل الفوز في الدنيا والآخرة، فمنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وقول رسول الله محمد صلى الله عليه وآله في حديث الثقلين المتواتر: (إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً) وقوله صلى الله عليه وآله: (مَثَلُ أهل بيتي فيكم كمَثَلِ سفينة نوح، مَن ركبها نجا، ومَن تخلّف عنها غرق وهوى)، فكانَ ذلك يدلّ وبوضوحٍ تامّ على أنَّ اتّباع أهل البيت عليهم السلام هو المنجي من الهَلَكة، فهم الأدلاّءُ على اللهِ ومَحالُّ معرفته سبحانه وتعالى.

لذا كان لزاما علينا أن نقتفي أثرهم عليهم السلام من خلال قراءة أحاديثهم ووصاياهم قراءةً معمّقة وبفكر متدبّر لننهل من علومهم وأخلاقهم ما يجعلنا نرتقي سلّم الكمال الإنساني لنُصلِحَ ما بيننا وبين الله تعالى من جهة، وما بين إخواننا من جهة أخرى، فهذا الكتاب الذي بين يديك قد تناول وصيةَ سيد البلغاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى ولده الإمام الحسن عليه السلام، إذ حرص المؤلف سماحة السيد عبد النافع الموسوي -جزاه الله خير الجزاء- على شرح مفاصله وبيان مقاصده

ليكون منهجاً تربوياً ومساراً توعوياً ومحطات يتأملها القارئ الكريم كي تخرج من التنظير إلى التطبيق في السلوك والحياة العلمية والعملية.

نسأله تعالى أن يجعلنا وإياكم من ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾، إنه سميع مجيب.

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

الشؤون الفكرية والثقافية

١٤٣٧هـ

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين ..

في صباح من صباحات طلب العلم في نجف الشرف والفضل والفضيلة سألت أحد العلماء: بماذا ندعو الناس وأي شيء ننقل لهم؟ فأجاب: وصايا الأئمة عليهم السلام.

فوجدتني أبحث فيها حتى قادني توفيق ربي الكريم للوقوف على وصية من أجلّ وأشرف وأكمل الوصايا وأكثرها اختصاراً وبلاغة وجمعاً لأبواب الخير ومفاتيح الفوز وجُنن النجاة، هذه الوصية هي وصية أمير المؤمنين عليه السلام إلى ولده الحسن عليه السلام فرأيتها من أهم الوصايا لأسباب منها:

١. إنها وصية النبي صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام، فهي إذن وصية إلهية بلحاظ أنه صلى الله عليه وآله لا ينطق عن الهوى.

٢. احتواؤها على مفاتيح الخير والصلاح والفوز والنجاة في الدنيا والآخرة ففيها أمهات قضايا الإيمان والعمل الصالح.

٣. إنها تمثل خلاصة للدين الإسلامي العزيز والعامل بها يكون مسلماً مؤمناً بحق وواقع.

٤. إفادة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في آخر الوصية أنه لم يمنع ولم يقصّر في الوصية مما يدل على كمالها وكفايتها.

ثم لا يخفى عليك أن الوصية من أهم الكلام لأنها تحكي خلاصة التجربة وزبدة المعرفة بالواقع والحقيقة، ولأنها تكون بالأهم من الأمور، فلو سافر أبٌ عاقل شفيق لأوصى ولده أو وصياً بأهم ما يشغله، وما فيه صلاح أهله وولده وما يهمه، وكلما كان الموصي عظيماً كانت وصيتُه بحسبه، فلقد أوصى المولى عز وجل عباده بأهم شيء فيه فوزهم ونجاتهم حيث قال: {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ..} ففي التقوى كل خير، وبُعدٌ عن كل شر، وعلى ذلك قِس وصايا الأنبياء والرسل والأئمة والحجج عليهم السلام، ولذلك وغيره أسميتُ هذا

الجهد بـ(مفاتيح الدارين في وصية أمير المؤمنين)، فمفاتيح السعادة والعافية في الدنيا والآخرة في نفس وصية الإمام عليه السلام لا ما في كتبتُه، وإنما كتبتُ ما كتبت لتوضيح أنَّ الخير كله في هذه الوصية ولأكون في خدمة إمامي وسيدي وجاري أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه صلوات ربي، ولعَمْرُ اللهِ لقد كان ولا زال نِعم الإمام والسيد والجار سلامٌ عليه ما بقيت وما بقي الليل والنهار.

الأقل عبد النافع الموسوي
النجف الأشرف
٢٨ رجب ١٤٣٤هـ

نص الوصية

قال الحسن بن علي عليه السلام: "لما حضرت أبي الوفاة أقْبَلَ يوصي فقال: هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب أخو محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وابن عمه وصاحبه: أول وصيتي أني أشهدُ أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسوله وخيرته اختاره بعلمه وارتضاه بخبرته، وأن الله باعث مَن في القبور، وسائل الناس عن أعمالهم، عالم بما في الصدور.

ثم إني أوصيك يا حسن- وكفى بك وصياً- بما أوصاني به رسول الله صلى الله عليه وآله فإذا كان ذلك يا بني فالزم بيتك، وابكِ على خطيئتك، ولا تكن الدنيا أكبر همّك، وأوصيك يا بني بالصلاة عند وقتها، والزكاة في أهلها عند محلها، والصمت عند الشبهة، والعدل في الرضا والغضب، وحُسن الجوار، وإكرام الضيف، ورحمة المجهود وأصحاب البلاء، وصلة الرحم، وحب المساكين ومجالستهم، والتواضع، فإنه من أفضل العبادة، وقُصر الأمل، وذكر الموت، والزهد فإنك رهينُ موتٍ وغرضُ بلاءٍ، وطريحُ سقم.

وأوصيك بخشية الله في سرّ أمرك وعلانيتك، وأنهاك عن التسرّع في القول والفعل، وإذا عُرض شيء من أمر الآخرة فابدأ به، وإذا عُرض شيء من أمر الدنيا فتأنّه، حتى تصيب رشدك فيه وإياك ومواطن التهمة والمجلس المظنون به السوء، فإن قرين السوء يغرّ جليسه.

وكن لله - يا بني- عاملاً، وعن الخنا زجوراً، وبالمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً، وواخِ الإخوان في الله، وأحبّ الصالح، ودارِ الفاسق عن دينك وأبغضه بقلبك وزايله بأعمالك لئلا تكون مثله.

وإياك والجلوس في الطرقات، ودع المماراة، ومجاراة من لا عقل له ولا علم.

واقتصد - يا بني- في معيشتك، واقتصد في عبادتك، وعليك فيها بالأمر الدائم الذي تطيقه.

والزم الصمت تسلم، وقدم لنفسك تغنم، ، وتعلّم الخير تعلم، وكن لله ذاكراً على

كل حال، وارحم من أهلك الصغير، ووقّر منهم الكبير، ولا تأكلنّ طعاماً حتى تصدّق قبل أكله، وعليك بالصوم فإنه زكاة البدن وجُنة لأهله، وجاهد نفسك، واحذر جليسك، واجتنب عدوك، وعليك بمجالس الذكر، وأكثر من الدعاء فأني لم آلك يا بني نصحاً، وهذا فراق بيني وبينك..." [١].

١- أمالي الشيخ المفيد، مجلس ٢٦، ص ٢٢٠؛ وأمالي الشيخ الطوسي، مجلس ١، ص ٧.

قول الإمام الحسن عليه السلام:
(لمّا حضرت أبي الوفاة)

قال عز من قائل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[1] فحضور الوفاة حضور الموت، أطلق على تلك الحال بالاحتضار وهو السوق أي نزع الروح وسمّي بذلك لحضور الموت، أو لحضور الملائكة الموكلين به، أو لحضور أهل الميت عنده، وفلان محتضر أي قريب من الموت ، والموت قريب منه[2].

وهنا بحثان في أحكامه الفقهية، وفي اختلاف حال المحتضرين:

الأول: ذكر الفقهاء أعزهم الله تعالى أحكاماً تخص المحتضر منها:

١. توجيهه إلى القبلة بوضعه على قفاه لو جلس كان وجهه إلى القبلة، إذا لم يكن قادراً على التوجه وإلا توجه هو، وهذا الحكم قال بعض الفقهاء بوجوبه لما رواه الصدوق رحمه الله عن الصادق عليه السلام: (إنه سئل عن توجيه الميت. فقال: استقبل بباطن قدمه القبلة)[3] ومما رواه رحمه الله قال: (وقال أمير المؤمنين عليه السلام: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله على رجل من ولد عبد المطلب وهو في السوق، وقد وُجّه إلى غير القبلة، فقال صلى الله عليه وآله: وجّهوه إلى القبلة فإنكم إذا فعلتم ذلك أقبلت عليه الملائكة، وأقبل الله عز وجل عليه بوجهه فلم يزل كذلك حتى يقبض) [4].
ومن الفقهاء من قال بالاستحباب لإرسال في الحديثين وغير ذلك بيد أن الاحتياط بالتوجيه والتوجه إلى القبلة مطمئن للمكلف بإصابة المطلوب شرعاً.

٢. يستحب تلقينه الشهادتين، والإقرار بالأئمة الاثني عشر، عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: (لو أدركت عكرمة عند الموت لنفعته، فقيل لأبي عبد الله

١ سورة البقرة: ١٨٠.

٢- انظر مجمع البحرين: ص٣٠٥.

٣ الوسائل: ج٢ ص٤٥٣.

٤ نفس المصدر.

عليه السلام: بماذا كان ينفعه؟ قال عليه السلام: يلقنه ما أنتم عليه)[١] أي ما عليه المؤمنون من شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله والولاية لعلي عليه السلام والمعصومين من ذريته عليهم السلام.

وعن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (إذا حضرت الميت قبل أن يموت فلقنه شهادة أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله)[٢].

وعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لقّنوا موتاكم لا إله إلّا الله، فإنها تهدم الذنوب. فقالوا يا رسول الله فمن قال في صحته؟ فقال: ذلك أهدم وأهدم، إن لا إله إلّا الله أُنسٌ للمؤمن في حياته وعند موته وحين يبعث، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال جبرئيل: يا محمد لو تراهم حين يبعثون، هذا مبيض وجهه ينادي: لا إله إلّا الله والله أكبر، وهذا مسود وجهه ينادي: يا ويلاه، يا ثبوراه) [٣].

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لقّنوا موتاكم لا إله إلّا الله، فإنّ مَن كان آخر كلامه لا إله إلّا الله دخل الجنة)[٤]. اللهم اجعل آخر كلامنا لا إله إلّا الله.

٣. يستحب تلقينه كلمات الفرج، فعن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله دخل على رجل من بني هاشم وهو يقضي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: قل لا إله إلّا الله العلي العظيم، لا إله إلّا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب السموات السبع ورب الأرضين السبع، وما بينهن وما تحتهن ورب العرش العظيم، والحمدُ لله رب العالمين. فقالها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الحمد لله الذي استنقذه من النار)[٥].

٤. يستحب تلقينه دعاء (يا مَن يقبل اليسير ويعفُوَ عن الكثير اقبل مني اليسير

١- الوسائل: ج٢ ص٤٥٧ ط آل البيت.

٢- نفس المصدر: ص٤٥٤.

٣- نفس المصدر: ج١٠ ص٤٥٦

٤- نفس المصدر: ص٤٥٦.

٥- نفس المصدر: ص٤٥٩.

واعفُ عني الكثير إنك أنت العفوُّ الغفور)[١]، لأن النبي ﷺ لقنه الشاب الذي اعتقل لسانه عند الاحتضار وسيأتي تمام الحديث إن شاء سبحانه وفيه أدعية أخرى.

٥. يستحب قراءة سورة الصافات ويس، فعن سليمان الجعفري قال: رأيت أبا الحسن عليه السلام، يقول لابنه القاسم: قم يا بني فاقرأ عند رأس أخيك ﴿والصّافّاتِ صَفّاً﴾ حتى تستتمها، فقرأ، فلما بلغ ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ قضى الفتى فلما سجيّ وخرجوا أقبل عليه يعقوب بن جعفر فقال له: كنا نعهد الميت إذا نزل به الموت يقرأ عنده: ﴿يس ۞ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ فصرت تأمرنا بالصافات، فقال: يا بني لم تقرأ عند مكروب من موت قط إلاّ عجل الله راحته)[٢]. ففي الحديث تقرير من الإمام عليه السلام على قراءة يس، أما الصافات فواضح خاصة لمن اشتد عليه السوق أو طال به.

٦. يستحب نقله للمكان الذي كان يصلي فيه إذا عسر عليه النزع، فعن عبد الله ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (إذا عسر على الميت موته ونزعه قرّب إلى مصلاه الذي كان يصلّي فيه)[٣].

الثاني: في اختلاف حال المحتضرين:

الظاهر من الآيات والروايات أن الموت ونزع الروح ليس بكيفية واحدة؛ قال عز من قائل: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٤].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٥].

فالذين تتوفاهم الملائكة طيبين، تقول لهم: سلام عليكم أي (سلامة لكم من

١- الوسائل: ج٢ ص٤٦٢ ح٢.

٢- نفس المصدر: ص٤٦٥.

٣- نفس المصدر: ص٤٦٣.

٤- سورة النحل: ٣٢.

٥- سورة النحل: ٢٨.

كل سوء)(١) وطيبين: (صالحين بأعمالهم الجميلة)(٢).

أما مَن تتوفاهم الملائكة ظالمين لأنفسهم، فإنهم يلقون السلم، أي يستسلمون للحق حين لا ينفعهم السلم والانقياد والإذعان، ثم يكذبون بالتبرء من الأعمال والمعاصي ويقولون: ما عملنا من سوء، فيُكذَّبون، ويقال لهم: بلى قد عملتم والله تعالى عالم بما كنتم تعملون في الدنيا من المعاصي(٣)، وأما الروايات ففيها مزيد بيان للمطلوب، وكثير موعظة للسعداء فقد روى الصدوق قدس سره قال: (قال الصادق عليه السلام: اعتقل لسان رجل من أهل المدينة فدخل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: قل لا إله إلّا الله، فلم يقدر عليه، وعند رأس الرجل امرأة فقال لها: هل لهذا الرجل أُمّ؟ قالت: نعم يا رسول الله، أنا أمه، فقال لها: أفراضية أنت عنه أم لا؟ فقالت: لا، بل ساخطة، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: فإني أحب أن ترضي عنه، فقالت: قد رضيت عنه لرضاك يا رسول الله، فقال له: قل: لا إله إلّا الله، فقال: لا إله إلّا الله، فقال له: قل يا من يقبل اليسير ويعفو عن الكثير اقبل مني اليسير، واعف عني الكثير إنك أنت العفو الغفور، فقالها، فقال له: ماذا ترى؟ فقال: أرى أسودين قد دخلا عليّ، فقال أعدها، فأعادها، فقال: ماذا ترى؟ فقال: قد تباعدا عني، ودخل أبيضان، وخرج الأسودان فما أراهما، ودنا الأبيضان مني الآن يأخذان بنفسي، فمات من ساعته)(٤).

فهذه الرواية تبين ما لرضا الأُمّ من دخالة في كيفية نزع الروح، وعدم رضاها، ففي حال سخط الأم كان هناك اعتقال للسان المحتضر عن قول كلمة التوحيد وهناك أسودان، وبعد رضاها لرضا رسول الله صلى الله عليه وآله قال كلمة التوحيد، ثم بعد الدعاء تغير حاله وجاء الأبيضان ومات على ذلك والحمد لله سبحانه وتعالى.

وعن محمد بن علي عليهما السلام: (قيل لعلي بن الحسين عليهما السلام: ما الموت؟ قال: للمؤمن

١- مجمع البيان: ج٢ ص١٤٨، مكتبة أهل البيت.

٢- التبيان: ج٦ ص٣٧٥.

٣- انظر التبيان، للشيخ الطوسي: ج٦ ص٣٧٥، مكتبة أهل البيت.

٤- الوسائل: ج٢ ص٤٦٢.

كنزع ثياب وسخة قملة[١]، وفكّ قيود وأغلال ثقيلة، والاستبدال بأفخر الثياب، وأطيبها روائح، وأوطأ المراكب، وآنس المنازل، وللكافر كخلع ثياب فاخرة، والنقل عن منازلٍ انسية، والاستبدال بأوسخ الثياب وأخشنها، وأوحش المنازل وأعظم العذاب)[٢].

حصيلة البحث:

إن الاحتضار هي حالة قرب الموت من الإنسان ويطلق على السوق، ونزع الروح وإن هناك أعمالاً لا ينبغي تركها كالاستقبال به، وأعمالاً تيسر عليه حالة خروج الروح من قراءة قرآن أو ذكر أو دعاء، وإن الطيبين تخاطبهم الملائكة بالسلام، وتبشرهم بالجنة والظالمين يستسلمون وينكرون أعمالهم، ويتم تكذيبهم. وهناك نزع برحمة ورفق، ونزع بشدة وعُسر وتعذيب، وعليه لابد للعاقل أن يستعد لتلك الساعة المهولة.

قوله عليه السلام:

(أقْبَلَ يوصي)

أوصى الرجل ووصّاه أي عهد إليه[٣]، ولا إشكال في مشروعية الوصية لآيات وروايات، منها قوله عز من قائل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾[٥]، وعن محمد بن مسلم قال: قال أبو

---

١ - أي كثر فيه القمل وهي دويبة معروفة.

٢ - معاني الاخبار، للصدوق: ص٢٨٩، مكتبة أهل البيت.

٣- لسان العرب.

٤ - سورة البقرة: ١٨٠.

٥- سورة النساء: ١٢.

جعفر عليه السلام: (الوصية حق، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله فينبغي للمسلم أن يوصي)[١].

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: (من لم يحسن عند الموت وصيته كان نقصاً في مروءته وعقله...)[٢].

ثم إن الفقهاء قسموا الوصية إلى قسمين: تمليكية: وهي أن يجعل الإنسان شيئاً من ماله أو حقاً من حقوقه لغيره بعد وفاته، وعهدية: وهي أن يعهد الإنسان بتولي شخص بعد وفاته أمراً يتعلق به أو بغيره، وحكموا بوجوب أمور في غاية الأهمية لها دخالة في مصير الإنسان الأخروي منها:

١. رد الأمانات إلى أهلها لو علم عدم ردها لهم بعد وفاته، لاقتضاء وجوب حفظ الأمانة ذلك . قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[٣] وعن سدير عن أبي جعفر عليه السلام قال: (قال أبو ذر سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: حافتا الصراط يوم القيامة الرحم والأمانة، فإذا مر الوصول للرحم المؤدي للأمانة نفذ إلى الجنة، وإذا مر الخائن للأمانة القطوع للرحم لم ينفعه معهما عمل، وتكفأ به الصراط في النار)[٤].

٢. التأكد من رد ديونه لأصحابها إذا حل أجلها ولو بالوصية بها والاستشهاد عليها، لحرمة حبس الحقوق عن أهلها بل عُدّ من الكبائر، ففي خبر محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن الدين قبل الوصية، ثم الوصية على أثر الدين، ثم الميراث بعد الوصية... الحديث)[٥].

٣. التأكد من أداء ما عليه من صلاة وصوم وكفارات ونذور ونحوها إذا كان له مال أو كان هناك احتمال معتد به أن هناك شخص يقضي عنه فيجب

١- الوسائل: ج٩ ص٢٥٧. ط آل البيت.

٢- نفس المصدر: ص٢٦٥.

٣- سورة المؤمنون:

٤- الوسائل: ج١٩ ص٦٨.

٥- نفس المصدر: ص٣٣٠.

الإيصاء بها، لأن العقل يحكم بوجوب إفراغ ما اشتغلت به الذمة.

٤. الوصية بأداء ما عليه من الحقوق الشرعية كالخمس والزكاة ورد المظالم لو كان له مال أو كان هناك احتمال معتد به أن من المؤمنين من يؤدي عنه، أيضاً لحكم العقل بوجوب تفريغ ما اشتغلت به الذمة، وللأخبار منها ما جاء عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام قال: قال علي عليه السلام: (الوصية تمام ما نقص من الزكاة)[٦].

٥. حجة الإسلام تخرج من أصل المال سواء أوصى أم لم يوصِ لأنها من قبيل الديون فعن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام (- في حديث - قال: يقضى عن الرجل حجة الإسلام من جميع ماله)[٧].

تنبيه:

الواجبات المالية كالدَّيْن، وإرش الجناية وعوض المضمون والخمس والزكاة ورد المظالم تُخرج من أصل التركة وإن لم يوصِ بها الموصي لأنها من قبيل الدَّيْن وهو مقدم على الوصية والإرث كما عرفت.

وتطلق الوصية على ما يشتمل على الموعظة وفعل المأمورات وترك المنهيات قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ...﴾[٨] وهذا المعنى هو الذي جاء في وصية أمير المؤمنين عليه السلام هذه.

٦- الوسائل: ج١٩ ص٢٥٩.

٧- الوسائل: ج١١ ص٧٢.

٨- سورة النساء: ١٣١.

قوله عليه السلام:

(فقال: أي أمير المؤمنين عليه السلام: هذا ما أوصى به عليّ بن أبي طالب أخو محمد رسول الله صلى الله عليه وآله)

وهنا بحثان، الأول في أخوّة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله، والثاني في الصلاة على محمد وآله، أما الأول: فالأخ من ولده الأب والأم أو أحدهما، ويطلق على الأخ من الرضاع ويطلق الأخ على المثل قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[١].

والأخوّة نسبية، قال تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ﴾[٢]، وسببية، قال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٣]، وربما منها أخوة الصداقة بسببها كقولهم: (رُبّ أخ لم تلده أمك)[٤].

إذا عرفت هذا بان لك مراد الإمام عليه السلام من قوله (أخو محمد)، فهو يريد الأخوة الدينية العقيدية التي يدل عليها الواقع المستند إلى القرآن والسُّنة في أمر المؤاخاة التي فعلها النبي صلى الله عليه وآله مرتين مرة في مكة بين المسلمين، فقد روى أصحاب السير إن النبي صلى الله عليه وآله آخى بين أبي بكر وعمر وبين الحمزة وزيد بن حارثة وبين عبد الرحمن ابن عوف وعثمان بن عفان وبين الزبير وابن مسعود. وبين نفسه وعلي عليه السلام قال في السيرة الحلبية : (لما آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بين أصحابه جاء علي تدمع عيناه فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: أنت أخي في الدنيا والآخرة)[٥].

وأخرى في المدينة المنورة بين المهاجرين والأنصار في واحدة من خطواته الحكيمة لبناء الأمة والدولة، ففي سيرة ابن هشام: (قال ابن إسحاق: وآخى رسول الله

١- سورة الأعراف: ٣٨

٢- سورة النور: ٦١.

٣- سورة الحجرات: ١٠.

٤- انظر تاج العروس للزبيدي.

٥- السيرة الحلبية. ج٢ ص٢٨٣.

ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار قال فيما بلغنا ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل تآخوا في الله أخوين أخوين، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: هذا أخي ... وفيما ذكر أنه صلوات الله عليه وآله آخى بين أبي بكر وخارجة بن زهير، وعمر بن الخطاب وعينان بن مالك، وأبي عبيدة وسعد بن معاذ، وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت وهكذا) [١].

ولقد روى المؤاخاة بين الرسول ﷺ وعلي عليه السلام أصحاب السير وأهل الحديث والمؤرخون حتى بلغ أمر المؤاخاة حدَّ التواتر.

وهناك أحاديث كثيرة غير حديث المؤاخاة تدل على تلك الأخوة الفريدة بين نبي المسلمين ﷺ وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يكفينا منها حديث المنزلة، ففي كتاب البخاري عن مصعب بن سعد عن أبيه أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف علياً فقال: (أتخلفني في الصبيان والنساء، قال: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا ليس نبي بعدي)[٢].

وفي كتاب مسلم عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي، قال سعيد فأحببت أن أشافه بها سعداً فلقيت سعداً فحدثته بما حدثني به عامر، فقال: أنا سمعته، فقلت: سمعته فوضع إصبعيه على أذنيه، فقال: نعم وإلّا فاستكتا)[٣]. وسعيد الذي ورد ذكره في الحديث هو سعيد بن المسيب.

فبعد أن ثبت أمر أخوة النبي ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام، وحديث المنزلة بما لا مجال للتشكيك فيهما إلاّ من جاحد أو ناصبٍ أو كاذبٍ على رسول الله ﷺ لأن من كذّب ما صدر عنه ﷺ كمن كذب عليه، والجاحد ضال ظالم، والناصب مخالف للقرآن الكريم لأنه تعالى يقول: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[٤]، والكاذب عدو لله تعالى متبوء مقعده من النار.

١- سيرة ابن هشام: ج٢ ص١٥١.

٢- صحيح البخاري: ج٢ ص١٢٩. قرص المكتبة.

٣- صحيح مسلم: ص٩٠٨ ، ط دار صادر.

٤- سورة الشورى: ٢٣.

فبعد هذا المهم، لابد من التوقف والتدبر بما جاء في أحاديث المؤاخاة وحديث المنزلة من دقائق حتى يتم المطلوب الأهم فمنها:

١. لقد توخى النبي ﷺ المشاكلة في المؤاخاة بين المهاجرين، فهو ﷺ آخى بين الأشباه والنظائر وهذا واضح بأدنى تأمل لمن مر على نصوص المؤاخاة في كتب السير والتاريخ والحديث، فاختياره لأمير المؤمنين عليه السلام لأنه أشبه الناس به، وأقربهم إليه عقيدة وعملاً ظاهراً وباطناً.

٢. لما اختاره ﷺ أخاً لنفسه هذا بأمر من المولى عز وجل، وهذا ما تقتضيه العقيدة بالنبي ﷺ.

٣. عندما آخى ﷺ بين المسلمين لم يقل لاثنين أنتما إخوان في الدنيا والآخرة، ولكنه قال ذلك بحق نفسه وأمير المؤمنين، ولا تخفى ما في ذلك من دلالة بعد أن عرفنا أن من معاني الأخ المثل أو تستعمل في ذلك، وأيضاً فيها دلالة على تقرير وإمضاء النبي الأكرم ﷺ لكل حياة أمير المؤمنين عليه السلام أقوالاً وأفعالاً حتى يمضي إلى ربه عز شأنه وذلك بلحاظ قوله عز شأنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[1] .

٤. حديث المنزلة أوجب كلَّ ما للنبي ﷺ من مقامات ومنزلة ومهام ما خلا النبوة والأخوة النسبية، لأن هارون كان كموسى سيداً لجميع أمة بني إسرائيل، واستخلفه موسى عليه السلام عندما ذهب للمناجاة وهذا مفهوم لكل عربي بل وأعجمي له علم بلغة العرب لوجود قرينة في نفس كلام النبي ﷺ وذلك من حيث قوله: (إلّا أنه لا نبي بعدي)، وليس لأحد إنكار أفضلية وأكملية هارون على جميع أمة موسى عليه السلام.

١ – سورة النجم: ٣– ٤.

النتيجة:

إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أكمل وأشرف وأفضل الأمة المحمدية غير النبي صلى الله عليه وآله، وليس لأحد من الصحابة هذه الفضيلة والمنقبة البتة، ولا لأحد من الأمة قطعاً، ثم اعلم إنه لو لم تكن لأمير المؤمنين عليه السلام إلّا هذه الفضيلة لكفته في كونه أفضل الأمة بعد النبي صلى الله عليه وآله.

ولمزيد من اليقين روى أبو خالد الكابلي قال: (قيل لسيد العابدين علي بن الحسين عليه السلام: إن الناس يقولون أن خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أبو بكر، ثم عمر، ثم علي عليه السلام، قال: فما يصنعون بخبر رواه سعيد بن المسيب، عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي عليه السلام: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي؟ فمن كان في زمن موسى مثل هارون؟)[١].

فالإمام السجاد عليه السلام ألزم الأمة بما تلتزم به، واعتمد على الوضوح والظهور الشديدين في الحديث الدال على أفضلية علي عليه السلام بمقارنة أمة محمد صلى الله عليه وآله بأمة موسى عليه السلام.

وقال الشيخ محمد بن الحسن الطوسي أعلى الله مقامه: (ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله من قوله: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي ، فأثبت له جميع منازل هارون من موسى إلّا ما استثناه لفظاً من النبوة، وعرفنا بالعرف أنه لم يكن أخاه لأبيه وأمه، وقد علمنا أن من منازل هارون من موسى أنه كان مفترض الطاعة على قومه، وأفضل رعيته ممن شدّ الله به أزره، فيجب أن تكون هذه المنازل ثابتة له، وفي ثبوت فرض طاعته ثبوت إمامته، وقد نطق القرآن ببعض منازل هارون من موسى، قال الله تعالى حكاية عن موسى أنه سأله تعالى فقال: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۞ هَارُونَ أَخِي ۞ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾، وفي آية أخرى: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾، وقال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾)[٢].

١- معاني الاخبار. للصدوق: ص٧٤.

٢- الاقتصاد . للشيخ الطوسي: ص٢٢٢.

في الصلاة على محمد وآله :

وفيه ثلاثة مطالب في معنى الصلاة، وفي كيفيتها ، وفي فضلها :

إن الصلاة على النبي ﷺ من المفردات المهمة في حياة المسلمين، ففضلاً عن استحبابها في نفسها، فهي داخلة في الصلاة والدعاء بل وفي الحياة اليومية فمن يغضب قيل له صلِّ على النبي وآله، ومن يدخل في بيت يصلي ومن ينظر لسارٍّ يصلي وهكذا، فوجب معرفة معناها، وكيفيتها، وفضلها، فهنا مطالب ثلاثة:

أولها: في معناها:

فعن أبي حمزة عن أبيه قال: (سألت أبا عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[١] فقال: الصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة تزكية، ومن الناس دعاء. وأما قوله عز وجل وسلموا تسليما، فإنه يعني التسليم له فيما ورد عنه ، قال: فقلت له: فكيف نصلي على محمد وآله؟ قال: تقولون: صلوات الله وصلوات ملائكته وأنبيائه ورسله وجميع خلقه على محمد وآل محمد والسلام عليه وعليهم ورحمة الله وبركاته، قال: فقلت: فما ثواب من صلى على النبي وآله بهذه الصلاة؟ قال: الخروج من الذنوب والله كهيئة يوم ولدته أمه)[٢].

ثانيها: في كيفية الصلاة على النبي ﷺ :

وهنا اتفقت كلمة الأمة على طريقة الصلاة على النبي ﷺ من الناحية العلمية تبعاً لنقلهم عن رسول الله ﷺ روايات تبين ذلك، لكن من الناحية العملية اختلفت كلمتهم وهذا ما تراه في الواقع بجلاء ففرقة تصلي عليه وتشرك الآل معه، وأخرى إذا تحدثوا في خطبهم، وكتبوا بأقلامهم لا يشركون الآل مع روايتهم عن النبي ﷺ روايات تنهى عن ذلك كما ستعلم إن شاء سبحانه: فقد روى البخاري

١- سورة الأحزاب: ٥٦.

٢- معاني الأخبار، للشيخ الصدوق: ص٣٦٨.

(عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قيل: يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف الصلاة؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)(١).

وروى مسلم عن أبي مسعود الانصاري: (قال أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله تعالى أن نصلي عليك يا رسول الله فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم)(٢).

أما من طرق أهل البيت فلها كيفيات مبثوثة في أحاديثهم وأدعيتهم كلها تشرك الآل في الصلاة على النبي ﷺ، وما هذا منهم ومن شيعتهم إلا امتثالاً لأمر الله عز وجل وتسليماً لما جاء به النبي ﷺ منه سبحانه وتعالى سيما وأن في نفس الآية ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وقد عرفت أن معناه كما جاء عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام: سلموا لما ورد، من التسليم لا من السلام، وأقل كيفية هي ما ورد في هذه الوصية حيث قال: أمير المؤمنين عليه السلام : (صلى الله عليه وآله وسلم) أو (صلى الله عليه وآله).

ثم إنه روى ابن حجر في الصواعق المحرقة: (إن النبي ﷺ قال: لا تصلوا عليّ الصلاة البتراء، فقالوا: وما الصلاة البتراء؟ قال: تقولون: اللهم صلى على محمد وتمسكون، بل قولوا: اللهم صلى على محمد وآل محمد)(٣).

وللأحاديث المتواترة الكثيرة في هذا المعنى حكَمَ فقهاء أهل البيت عليهم السلام أن الصلاة على النبي وآله واجبة في التشهد الأول والثاني من الصلاة ومستحبة في غيرها.

١- صحيح البخاري.

٢- صحيح مسلم: ص١٥٣، ط دار صادر.

٣- الصواعق المحرقة: ص١٤٤.

أما فقهاء مدرسة الصحابة فاختلفت كلماتهم فمنهم من أوجبه في التشهد الأخير من الصلاة.

ومنهم من أوجبه في العمر مرة، ومستحب في جميع الأوقات، ومنهم لم يقل بوجوبه مطلقاً وقال باستحبابه فيقال لهم:

١. إنه تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ هذا أمر وهو يدل على الوجوب إلاّ إذا صرفه صارف إلى الاستحباب من قرآن أو سُنّة للنبي ﷺ.

٢. إجماع أهل البيت عليهم السلام على وجوبه في التشهد الأول والتشهد الأخير وهم أدرى بالذي فيه، وقال ﷺ: (إني تارك فيكم أمرين إن أخذتم بهما لن تضلوا: كتاب الله عز وجل وأهل بيتي عترتي، أيها الناس اسمعوا وقد بلغت، إنكم ستردون عليّ الحوض فأسألكم عما فعلتم في الثقلين، والثقلان كتاب الله جل ذكره وأهل بيتي، فلا تسبقوهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم)[١].

وروى أحمد بن حنبل عن زيد بن ثابت قال: (قال رسول الله ﷺ: إني تارك فيكم خليفتين كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض، وما بين السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)[٢].

فالحديث الأول من طرق الشيعة، والثاني من طرق السُنّة، وهما متفقان معنىً على وجوب الأخذ من أهل البيت والرجوع إليهم وعدم التقدم عليهم وهذا نص في الحديث الأول، أما في الحديث الثاني فجعل أهل البيت خليفة على الأمة كما القرآن، فالذي يرجع للقرآن لابد له من الرجوع للعترة، ثم إن حديث الثقلين جاء في أكثر كتب المسلمين إن لم يكن في جميعها، فبلغ حد التواتر اللفظي والمعنوي وجاء بألسنة متعددة لكن مراده جليّ وبين.

ولقد قال سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٣].

١- الكافي، للشيخ الكليني: ج١ ص٢٩٤.

٢- مسند احمد: ج٥ ص١٨٢.

٣- سورة الحشر: ٧.

قال الرازي في تفسيره ما نصه: (إن الدعاء للآل منصب عظيم، ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة وهو قوله اللهم صلى على محمد وآل محمد وارحم محمداً وآل محمد، وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل، فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب، وقال الشافعي رضي الله عنه:

يا راكباً قف بالمحصب من منى واهتف بساكن خيفها والناهضِ[1]
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى فيضاً كما نظم الفرات الفائضِ
إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

وروي أن أحمد بن حنبل وجماعة عادوا (أبا نعيم) وهو من أعاظم مشايخ وكبار علماء أهل السنة، فاستوى جالساً واعتذر قائلاً: آجركم الله فإني محموم ولا طاقة لي على الحديث، فسأله أحدهم: ما تقول فيمن شهد الشهادتين وعمل بأحكام رب العالمين ولكنه مات ولم يعرف أبا بكر، فهل يضر ذلك في دينه؟

قال: لا.

قال: شهد الشهادتين ولم يعرف عمر، فهل يضره ذلك؟

قال: لا.

ولم يسأل عن عثمان، وقال: فما تقول فيمن لا يعرف علي بن أبي طالب، فهل يضره ذلك؟

قال: نعم، فعلي من آل رسول الله، وقبول الصلاة وكمالها بالصلاة على محمد وآله، فلابد من معرفتهم ليقصد دخوله في الآل[2].

ثالثهما: في فضلها:

لكل عبادة آثار، دنيوية وأخروية، وبعض العبادات قد أخفيت آثارها أو بعضها، وأخرى جاء في آثارها الكثير ومنها الصلاة على محمد وآل محمد وإليك بعض الروايات الشريفة:

١- تفسير الرازي: ج٢٧ ص١٦٦.

٢- الخصائص الفاطمية: ص٥٤٥.

١. عن مرازم عن أبي عبد الله (عليه السلام): (إن رجلاً أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله إني جعلت ثلث صلواتي لك؟ فقال له خيراً، فقال له: يا رسول إني جعلت نصف صلواتي لك؟ فقال له: ذاك أفضل، فقال: إني جعلت كلّ صلواتي لك، فقال: إذاً يكفيك الله عز وجل ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك، فقال له رجل: أصلحك الله كيف يجعل صلاته له؟ فقال أبو عبد الله (عليه السلام): لا يسأل الله عز وجل شيئاً، إلّا بدأ بالصلاة على محمد وآله)[١].

٢. وعن هشام بن سالم عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (لا يزال الدعاء محجوباً حتى يصلّى على محمد وآل محمد)[٢].

٣. وعن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): الصلاة عليّ وعلى أهل بيتي تذهب النفاق)[٣].

٤. قال الصدوق (رحمه الله) قال الرضا (عليه السلام): (من لم يقدر على ما يكفر به ذنوبه فليكثر من الصلاة على محمد وآله فإنها تهدم الذنوب هدماً) ، وقال: (الصلاة على محمد وآله تعدل عند الله عز وجل التسبيح والتهليل والتكبير)[٤].

عن ابن القداح عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): من صلى عليّ صلى الله عليه وملائكته، فمن شاء فليقلّ ومن شاء فليكثر)[٥].

٥. عن محمد بن مسلم عن أحدهما (الصادق أو الباقر) (عليهما السلام) قال: (ما في الميزان شيء أثقل من الصلاة على محمد وآل محمد، وإن الرجل لتوضع أعماله في الميزان فتميل به فيخرج صلى الله عليه وآله الصلاة عليه فيضعها في ميزانه فيرجح به)[٦].

١- الكافي: ج٢ ص٤٩٣.

٢- الكافي: ج٢ ص٤٩٠.

٣- نفس المصدر: ص ٤٩٢.

٤- عيون أخبار الرضا، للصدوق: ج٢ ص٤٩٥.

٥- الوسائل: ج٧ ص١٩٤.

٦- الكافي: ج٢ ص٤٩٤.

أما من طرق مدرسة الصحابة:

١. عن أبي هريرة قال: (قال رسول الله ﷺ: من صلى عليّ صلاة واحدة صلى الله عليه عشراً)[١].

٢. عن عبد الله بن مسعود إن رسول الله ﷺ قال: (أَوْلى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة)[٢]. وغيرها كثير.

نتيجة البحث:

١. الصلاة على محمد وآله واجبة في تشهّدَي الصلاة ومستحبة في غيرها.

٢. لا يُشرّع للمسلم أنْ لا يُشرك آلَ محمدٍ ﷺ معه.

٣. لأنه ﷺ بين كيفية الصلاة عليه فلابد من الاستنان بسنّته، ومن لم يسلم بذلك ما هو إلاّ مكابر معاند.

٤. الصلاة على محمد وآله باب من أبواب الرحمة الإلهية الواسعة، وطريق موصل لرضا المولى عز وجل والعاقل يغتنم.

قوله عليه السلام:

(وصاحبه)

قد عرفت في مبحث الأخوة أن أمير المؤمنين عليه السلام يريد المعاني الأهم فيما يفيده من كلمات في وصيته، فبقوله (وصاحبه) يريد الإشارة والإلفات إلى صحبته لرسول الله ﷺ وهذا يدعونا لبحث معنى الصحبة والصحابي: لغة وعرفاً واصطلاحاً فنقول:

١. معنى الصاحب في اللغة: هو المعاشر، وصاحَبه عاشره[٣]، وكل شيء لازم شيئاً

١- سنن الدارمي: ج٢ ص٣١٧.

٢- سنن الترمذي: ج ص٣٠٢.

٣- لسان العرب: ج١ ص٥١٩.

فقد اصطحبه[١]، وعليه فهو الملازم[٢]، والصحبة تفيد انتفاع أحد الصاحبَين بالآخر، ولهذا يستعمل في الآدميين خاصة، فيقال: صحب زيدٌ عمراً، ولا يقال صحب النجمُ النجمَ. وأصله في العربية الحفظ ومنه يقال: صحبك الله، وسر مصاحباً أي محفوظاً، وفي القرآن ﴿وَلاَ هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾[٣].

٢. معنى الصاحب عُرفاً: لا يطلق الصاحب في العرف إلا على من صاحب شخصاً لمدة من الزمن معتد بها، وفي أحوال متعددة، مع عِشرة ورفق وانسجام فيقال: إن بينهما صُحبة، ولا يُطلق العُرف ذلك المعنى على من التقى بشخص أو رآه، أو حدّثه، والدليل على ذلك الواقع.

٣. ثم إن هناك اصطلاحاً يطلق على من صاحب رسول الله ﷺ هو الصحابي، فبمجرد وروده انصرف ذهن السامع أو القارئ المسلم لصحابة الرسول ﷺ، وقد عرف بتعريفات أهمها:

- من طالت مجالسته مع النبي ﷺ على طريق التتبع له والأخذ منه بخلاف من وفد إليه وانصرف بلا مصاحبة ومتابعة[٤].
- إنه من لقي النبي ﷺ مؤمناً به، ومات على الإيمان والإسلام، وإن تخللت ردته بين لقيه مؤمناً به وبين موته مسلماً[٥].
- هو كل مسلم رأى رسول الله ﷺ، وهو للبخاري[٦].
- هو كل من أدرك زمنه وهو مسلم ﷺ وإن لم يره[٧].
- هو من أقام مع النبي سنة أو سنتين، وغزى معه غزوة أو غزوتين[٨].

بعد هذا ينبغي أن تعرف أنه لا توجد آية أو رواية تنص أو تبين معنى الصحابي،

١- معجم مقاييس اللغة: ص٣٣٥.
٢- مفردات ألفاظ القرآن: ص٢٧٥.
٣- سورة الأنبياء: ٤٣.
٤- عمدة القاري: ج١٦ ص١٦٩.
٥- الرعاية في علم الدراية: ص٣٤٣.
٦- عمدة القاري: ج١٦ ص١٦٩.
٧- نفس المصدر السابق.
٨- نفس المصدر السابق.

بيد أن هناك آيات تصف الصحابة كقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾[١].

ومن الواضح أن الشدة على الكفار والرحمة لا تعرفان إلا في الحرب والسلم والحياة الاجتماعية، والكون مع النبي ﷺ في هذه الأحوال يستوجب الإقامة عنده فترة فيها حرب وسلم وغيرهما من أحوال الحياة، ومن هذا ومن المعنى اللغوي والعرفي يمكن أن نقول: إن الصحابي هو من عاشر ولازم النبي ﷺ مدة من الزمن معتد بها مع التتبع لآثاره، والأخذ منه، والتعلم عليه، ومنه تعرف ضعف بعض التعريفات السابقة، وإن كان مَن رأى النبي أو جلس معه جلسة قد تشرف بالنظر واللقاء بسيد الخلق محمد ﷺ.

ثم إن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كان ملازماً للنبي كظله في حربه وسلمه، وفي حله وترحاله، في صحته ومرضه مع العِشرة الحسنة، والصحبة الطويلة بل هو أطول الصحابة صحبة للنبي ﷺ، وهذه منقبة ينفرد بها لأنه أول القوم إسلاماً، وأقدمهم أيماناً وأشدهم اتباعاً، وأعظمهم طاعة وحباً.

قال عليه السلام: (وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا ولد يضمني إلى صدره، ويكنفني إلى فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ويلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل، ولقد قرن الله به ﷺ من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة، ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان آيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلاّ إنك لست بنبي ولكنك وزير وإنك على خير)[٢].

١- سورة الفتح: ٢٩.

٢- نهج البلاغة: ج٢ ص١٥٧.

فإن كانت الصحبة تقاس بزمنها فهو أطول الصحابة صحبة، وإن كانت تقاس بكيفيتها فهو من أكمل الصحابة صحبةً، وعليه فهو أفضل الصحابة على الإطلاق من هذه الجهة.

قضية عدالة الصحابة:

يرى الكثير من أهل العلم في مدرسة الصحابة أن الصحابة جميعاً عدول، بل وهم جميعاً من أهل الجنة، وذكر ابن حجر: (اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول، وقال الخطيب: عدالة الصحابة ثابتة معلومة، وقال أبو محمد بن حزم: الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعاً)[١] هذا بعد أن قال: (والأصح في تعريف الصحابي إنه: من لقي النبي ﷺ في حياته ومات على إسلامه)[٢].

والتحقق من صواب هذه النظرية أو بطلانها يوجب علينا أن نعرف أولاً معنى العدالة.

فالعدالة لغة: الاستواء، يقال هذا عدل أي مساو، أو من اعتدل الشيئان إذا تساويا، فهي في الأصل الاستقامة والاستواء.

وقد وقع الاختلاف في تعريفها شرعاً حتى حكى صاحب الفصول ثلاثة أقوال في حقيقتها:

(الأول: إنها مَلَكة نفسانية باعثة على التقوى والمروة.

الثاني: إنها عبارة عن الإسلام مع عدم ظهور الفسق.

الثالث: هي حسن الظاهر)[٣]، هذا في مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

أما في مدرسة الصحابة فهي: الصلاح في الدين والإنصاف بالمروءة[٤]، وعن أبي حنيفة: (كل مسلم ظاهر الإسلام مع السلامة من فسق ظاهر فهو عدل وإن كان مجهول الحال)[٥].

١- الإصابة: ج١ ص١٦٣.

٢- نفس المصدر: ص٨.

٣- معجم مصطلحات الرجال والدراية: ص١٠١.

٤- فقه السنة: ص٤٣١.

٥- تفسير القرطبي: ج٣ ص٣٩٥.

والمتحصل من المدرستين أن العدل هو الذي لا يترك واجباً ولا يفعل محرماً، بل يجتنب المكروهات ويواظب على المستحبات ما استطاع لذلك سبيلاً، وأن يكون متحلياً بالمروءة بأن يكون متنزهاً عما يدل على خسة النفس ودناءة الهمة بحسب الحال.

ثم لنأتي للصحابة على تعريف مدرسة الصحابة ومن كلية عدالتهم ودخولهم للجنة فهل هم جميعا مصاديق للمسلم العادل أم لا، وليس هناك أصدق من القرآن الكريم فلننظر ونتدبر بماذا وصف بعض الصحابة ليتجلى الحق في المسألة وإليك بعضاً من آياته:

١. قال عز من قائل: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[١]. فهذا النص القرآني نزل في الصحابة المشاركين في معركة أحد كما هو معروف لكل مسلم وهو ينص على أن منهم من ارتكب معاصي منها، ما هو متفق على أنه من الكبائر وهو الفرار من الزحف، وأثبت أن الرسول كان يدعوهم للثبات والقتال ولكنهم فروا لا يلوون على شيء، ثم أنزل الله تعالى النعاس الأمنة على طائفة منهم، وطائفة لم يستحقوا ذلك لأن نفوسهم هي التي أهمتهم ولم يفكروا بمصير النبي ﷺ ومستقبل الإسلام، بل وظنوا بالله ظن الجاهلية، ثم إن المتدبر يفهم أن سريرتهم تختلف عن ظاهرهم، وما يبدون لرسول الله ﷺ وإنهم اعترضوا على تدبير الرسول ﷺ، بل ولم يكن عندهم وعي وفهم للقضاء

١- سورة آل عمران: ١٥٣-١٥٤

والقدر الإلهيَّين، والشيء الأخير الذي أشار له هذا النص أن الصحابة كباقي الناس في معرض الاختبار والابتلاء والتمحيص، وأن الصحبة لا عاصمة ولا معدلة وليس من ذلك بشيء، وقد يقول قائل: لكنه تعالى عفا عنهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[1]. فإنه يجاب: نحن بصدد إثبات أنهم يرتكبون الخطيئة كبيرة وصغيرة، ولسنا بصدد إثبات امتناع العفو بحقهم.

٢. قال سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[2]، الآية تصرح أن بعض الذين كانوا مع النبي ﷺ لا يسمعون أهل الفتنة فحسب، بل يكثرون السماع لهم، ثم نسأل هل ذلك من الظلم أم لا؟ فهو سبحانه يقول: ﴿وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

٣. قال عز شأنه: ﴿يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾[3]، ظاهر الآية أن الذين في قلوبهم مرض غير المنافقين وهذا ما يقتضيه العطف بالواو والآية تحكي حال القوم في معركة الأحزاب كما هو معلوم.

٤. قال جل شأنه: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ ۞ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[4]، فلو راجعنا كتب التفسير والتاريخ لوجدنا أن المؤمن علي بن أبي طالب عليه السلام، والفاسق المكذب بالجنة والنار والمعاد هو الوليد بن عقبة[5]، وليس في هذا عجب فهذا شأن الرجل،

١- سورة آل عمران: ١٥٥.

٢- سورة التوبة: ٤٧.

٣- سورة الأحزاب: ١١.

٤- سورة السجدة: ١٨-٢٠.

٥- شواهد التنزيل: ج ٤٤٥ و٤٥٣ و٦١٠ و٦٢٦؛ وتفسير القرطبي: ج٢١ ص١٠٧؛ والكشاف، للزمخشري: ج٣ ص٥١٤؛ فتح القدير، للشوكاني: ٢٢٠، والكثير الكثير من المصادر.

لكن لا ينقضي العجب من تأمير عثمان بن عفان له وجعله والياً على الكوفة، ثم ولّاه معاوية وولده يزيد على مدينة رسول الله ﷺ، أفلا يوجد في المسلمين غيره!!؟ وقد روى أهل السنة عن النبي ﷺ أنه قال: (من تولى من أمر المسلمين شيئاً فاستعمل عليهم رجلاً وهو يعلم أن فيهم من هو أولى بذلك وأعلم منه بكتاب الله وسنة رسوله فقد خان الله ورسوله وجميع المؤمنين)[١]، ثم إن هذه الآية تحرّم كلية دخولهم الجنة كما هو واضح.

٥. قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾[٢]، نزلت هذه الآية في عبد الله بن سرح وهو والي عثمان بن عفان على مصر، وقد أباح رسول الله ﷺ دمه ولو تعلق بأستار الكعبة، وجاء به عثمان يوم الفتح يطلب له الأمان، ولما لم يقتل أعطاه الأمان[٣]، والعجب في أمره هو العجب.

٦. قال تبارك وتعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٤].

أيها القارئ الكريم تأمل وتدبر في هذه الآية فهي تصف الصحابة بأوصاف جليلة وبضمائر الجمع لكنها بعد ذلك تبعّض وتقول: (منهم) فبعضهم ثبت على الإيمان والعمل الصالح، وهذا البعض هو الموعود بالمغفرة والأجر العظيم وليس الجميع وبهذه الآية يتحصحص الحق.

١- مجمع الزوائد: ج٥ ص٢١١.

٢- سورة الإنعام: ٩٣.

٣- انظر السيرة الحلبية: ج٣ ص١٨، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ج٧ ص٣٩، الكامل في التاريخ، لابن الاثير: ج٢ ص٢٤٩.

٤- سورة الفتح: ٢٩.

وأما السُنّة فإليك بعض الأحاديث وإن كان ما أوردناه من الآيات فيه كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد.

١. روي عنه ﷺ أنه قال: (أنا فرطكم على الحوض، وسأنازع رجالاً، فأغلب عليهم، فلأقولن ربِّ أصحابي أصحابي! فيقال: إنك لا تدري ما أحْدَثوا بعدك)[١].

هذا الحديث يبيّن أن بعض الصحابة يُحْدِثون ويبتدعون بدعاً فلا يشربون من حوض النبي ﷺ في القيامة، فيقول النبي ﷺ: (ربّ أصحابي أصحابي) فيجاب: إنهم فعلوا بعدك الأفاعيل العظام، ونسأل: إنّ مَن لا يشرب من الحوض هل يدخل الجنة؟ ثم مَن لا يدخل الجنة.. إلى أين يذهب؟

٢. وأيضاً عنه ﷺ أنه قال: (إني لستُ أخشى عليكم أن تُشركوا بعدي، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تتنافسوا فيها وتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم)[٢]. ولو قرأنا التاريخ لعرفنا صدق نبوءة النبي ﷺ.

٣. وعنه ﷺ أنه قال: (إنكم ستحرصون على الإمارة، وستصير ندامة وحسرة يوم القيامة، فبئست المرضعة، ونعمت الفاطمة)[٣]. ولعمري لقد حرصوا على الإمارة وأي حرص، ولو جئنا بشواهد هذه الأحاديث وغيرها لخرجنا عن موضوع الكتاب، ولاحتجنا مجلدات، ولكن له الحمد فكتب التاريخ والحديث مشحونة بذلك، وما على طالب الحق والحقيقة إلاّ البحث ولا أقول الكثير بل القليل يكفي، ثم إنه ليس فوق كلام الله تعالى حق.

نتيجة البحث:

الصحابي هو المعاشر والملازم للنبي ﷺ مدة من الزمن معتد بها، مع حسن الصحبة والثبات على الإيمان والعمل الصالح، وأن نظرية عدالة الصحابة باطلة

١- مسند أحمد: ج٢ ص ٣٥.

٢- كتاب مسلم: ج٧ ص ٦٨ ؛ والسنن الكبرى: ج٤ ص١٤.

٣- مسند احمد: ج٣ ص١٩٩.

قرآناً وسنة، وأن القطع - بدخول جميع الصحابة الجنة جزاف ورجمٌ بالغيب، وإن المُصِرّ على هذه النظرية معاند للحق بل جاحد، وإن ما يُبنى عليها من آراء في العقيدة والفقه بلا مستند صحيح.

قوله عليه السلام:
(أول وصيّتي أني أشهد أن لا إله إلّا الله)

لقد أوصى عليه السلام بكلمة التوحيد، وفيها قضيتان: نفي الشريك وإثبات الوجود للذات المقدسة، وهما واضحتان لكن هناك من يحتاج لمنبه، أو لإثارةٍ لما في أعماق نفسه، فربما يحتاج لأدلة، وربما يحتاجها البعض للوصول إلى اليقين أو لزيادة الإيمان فإليك بعض الأدلة:

الأول:

دليل الفطرة: وهي الخلقة[1]، وتقريره: إن كل عاقل إذا رجع إلى نفسه، ونظر في أعماقه لوجد أنه يعرف ربه ولوجد أنه ضعيف محتاج إلى ملجأ إلى قوة عظيمة قاهرة قادرة عند الملمات ويرغب إليها في المحبوبات، وسيجد أن أقرب ما يكون إلى هذا الإيمان إذا أحيط به، فيرى كيانه يتوجه لمن ينجيه، وهذه القوة وذلك المخلص العظيم القادر القاهر هو الله سبحانه وتعالى، لذلك نجد غير المؤمنين والمشككين يرجعون متوسلين لله عز وجل في المهمات والمصائب والأهوال فيقولون: يا إلهي...

كما قال فرعون حين أوشك على الهلاك: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2] وبالحقيقة هو آمن برب فرعون.

قال رجل للإمام الصادق عليه السلام: يا ابن رسول الله، دلني على الله ما هو؟ فقد

١- لسان العرب: ج٥ ص٥٦.

٢- سورة يونس: ٩٠.

أكثر عليّ المجادلون وحيّروني، فقال له: يا عبد الله هل ركبت سفينة قط. قال: نعم، قال: فهل كُسِرَت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال نعم، قال: فهل تعلّقَ قلبك هناك أن شيئاً من الأشياء قادرٌ على أن يخلصك من ورطتك؟، قال: نعم، قال الصادق عليه السلام: فذلك الشيء هو القادر على الإنجاء حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث)[1].

فالإمام عليه السلام لم يُرجع هذا الحائر إلى العقل ولا إلى الواقع الكوني وإنما أرجعه إلى قلبه، لأن القلب تحضر عنده تلك المعرفة بالذات المقدسة، ولا يحتاج صاحب الفطرة السليمة لأكثر من ذلك.

الثاني:

احتياج الأثر إلى المؤثر، وهو من البداهة بمكان، ومرتكز في كل إنسان له أدنى تفكير فالحركة تحتاج لمحرك، والمسبب إلى سبب والمعلول إلى علة، والأثر إلى مؤثر وغيرها.

فهذا الكون بحاجة لمكون، والوجود لموجد، والنظام لمنظم وهكذا..

وإليك بعض الشواهد التي صدرت من عقلاء:

١. دخل رجل على الإمام الرضا عليه السلام وعنده جماعة، فقال له أبو الحسن عليه السلام: أيها الرجل أرأيت إن كان القول قولكم - وليس هو كما تقولون - ألسنا وإياكم شرعاً سواء ولا يضرنا ما صلينا وصمنا وزكينا وأقررنا؟ فسكت، فقال أبو الحسن عليه السلام: وإن يكن القول قولنا - وهو كما نقول- ألستم قد هلكتم ونجونا؟ فقال: رحمك الله، فأوجدني كيف هو وأين هو؟ قال: ويلك إن الذي ذهبت إليه غلط، هو أيّن الأين، وكان ولا أين، وهو كيّف الكيف وكان ولا كيف، ولا يعرف بكيفوفية ولا بأينونية ولا يدرك بحاسة ولا يقاس بشيء. قال الرجل: فإذاً إنه لا شيء، إذ لم يدرك بحاسة من الحواس. فقال أبو الحسن عليه السلام: ويلك لما عجزت حواسك عن إدراكه أنكرت ربوبيته، ونحن إذا عجزت

---

١ - معاني الأخبار: ص٤.

حواسنا عن إدراكه أيقنّا أنه ربنا خلاف الأشياء. قال الرجل: فأخبرني متى كان؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: أخبرني متى لم يكن فأخبرك متى كان. قال الرجل: فما الدليل عليه؟ قال أبو الحسن عليه السلام: إني لما نظرت إلى جسدي فلم يمكني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره منه وجر المنفعة إليه علمت أن لهذا البنيان بانياً فأقررت به، مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته وإنشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المتقنات علمت أن لهذا مُقدّراً ومُنشِئاً[1].

٢. قيل لعجوز ما الدليل على وجود الصانع ، فقال: دولابي هذا، فإني إن حركته تحرك وإن لم أحركه سكن[2].

٣. قال أعرابي لما سئل عن الدليل على الصانع: البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام على المسير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، لا تدلان على اللطيف الخبير!![3].

٤. حكي أنه كان بعض الملوك يشك في وجود الله سبحانه وتعالى، وكان له وزير مؤمن عرف منه ذلك وكان عاقلاً، فأمر ببناء قصر وإجراء أنهار وإحداث بساتين وأشجار في صحراء من الأرض من غير أن يعلم الملك، ثم ذهب بالملك لذلك المقام، فلما رأى الملك ذلك سأل الوزير: من بنى ذلك وفعله؟ فقال الوزير: إنه حدث من تلقاء نفسه وليس له بان وصانع، فغضب الملك لأنه يعلم أن ذلك مستحيل لا يكون. فقال الوزير: أيها الملك إن كان وجود هذا البناء بلا بانٍ ممتنعاً فكيف يصحّ هذا البناء العظيم أعني الأرضين والسموات وما فيهن من العلويات والسفليات بلا فاعل ولا صانع؟!، فاستحسن الملك كلامه وتنبه وزال الشك عنه[4].

٥. وعن بعض الفضلاء أنه أراد أن يكتب رسالة في إثبات وجوده سبحانه وتعالى

١- توحيد الصدوق: ص٢٥١.

٢- حق اليقين: ص٢٤.

٣- بحار الأنوار: ج٦٦ ص١٣٤.

٤- حق اليقين: ص٢٤.

فقالت له زوجته: ما تكتب؟ قال: رسالة في إثبات الواجب. فقالت: أفي الله شك فاطر السموات والأرض، فترك تأليف ما أراد.

الثالث:

دليل الوجوب: لو فكر الإنسان في نفسه وفي كل ممكن غيره لوجد أنه قبل وجوده كانت نسبته إلى الوجود والعدم متساوية أي أنه يجوز عليه الوجود ويجوز عليه العدم، بل هو لا شيء وهذا معنى الامكان، وعليه لابد من علة فاعلة واجبة تخرجه من كتم العدم إلى متن الوجود بسد أنحاء عدمه، وإيجاد أسباب وجوده، ولا يمكن ان تكون تلك العلة نفسه. ولا ممكن مثله، لأنه فاقد لذلك وفاقد الشيء لا يعطيه، ولا سلسلة من الممكنات، لأن تسلسل الممكنات لا تخرج المجموع عن كونه ممكناً، فلا يبقى إلا أن يكون واجباً فاعلاً قادراً يخرج الممكن إلى الوجود، ويجعل وجوده ضرورياً بالغير، وهو الله سبحانه وتعالى، وهذا ما يعبر عنه بأن الشيء ما لم يجب لم يوجد، وهو دليل لمن كانت عنده مقدمات معرفية لكن يمكن إفادته بهذا الحديث:

عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه دخل عليه رجل فقال له: يا ابن رسول الله ما الدليل على حدوث العالم؟ فقال: أنت لم تكن ثم كنت وقد علمت أنك لم تكون نفسك، ولا كونك من هو مثلك[1].

فالإنسان ممكن لم يكن ثم كان، وهو يعرف أنه لم يكن ويخلق نفسه، ولا كونه إنسان مثله لأنه أيضاً ممكن، ولو كان الغير قادراً على التكوين لأبقى نفسه، فلا يبقى إلاّ أن يكون المكون واجب الوجود بالذات وهو المولى عز وجل. هذا بالنسبة لأدلة وجوده.

١- توحيد الصدوق: ص٢٩٣

أما أدلة توحيده عزّ وجل فمنها:

١- عدم الأثر: فكما أن الأثر دليل على المؤثر، فعدم الأثر دليل على عدم المؤثر، وهو بديهي واضح فعن أمير الموحدين عليه السلام أنه قال: (واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه وعرفت أفعاله وصفاته ولكنه إله واحد كما وصف نفسه)[١]. فوجود الرسول الداعي، ووجود الآية والخلق والفعل ومظاهر الصفات دليل على وجود المُرسل وذي الآية والخالق والفاعل والمظهر، وعدم ذلك دليل على عدم المرسل وذي الآية والخالق والفاعل والمظهر، وعلى سبيل المثال لم يجيء رسول وقال: لقد بعثني الإله الفلاني بل كل الرسل ينبئون عن الله الواحد الأحد عز شأنه.

٢- وحدة النظام: فمن تأمل في الكون وجده منظماً متقناً، ولنأخذ أمثلة أربعة:

أ. الشمس ونظام عملها وعدم الخطأ فيه وما يترتب على ذلك من بقاء الحياة ونظم الزمن.

ب. صناعة الأوكسجين: فالإنسان والحيوان يحتاجانه، والنبات يصنعه.

ت. الدورة الكونية للماء فهو يصعد بخاراً بأشعة الشمس وينزل ماءً طهوراً زلالاً.

ث. قانون الزوجية العام: فإن عالم الأحياء من إنسان وحيوان ونبات باقٍ بذلك القانون.

ثم إن كل ذلك وغيره مما لا يحصيه مُحصٍ غير منقطع منذ بدأت الحياة إلى ما شاء المولى عز شأنه. عن هشام بن الحكم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما الدليل على أن الله واحد؟ قال: اتصال التدبير وتمام الصنع كما قال الله عز وجل ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٢].

١- نهج البلاغة: رسالة رقم ٣١ .

٢- توحيد الصدوق: ص٢٥٠.

بتقريب: إن عدم الفساد وعدم انقطاع التدبير وكمال الصنع دليل على عدم التعدد بل على الوحدة والتفرد بالتدبير والصنع.

٣- دليل التمانع: عن هشام بن الحكم في حديث الزنديق الذي أتى أبا عبد الله عليه السلام، وكان من قول أبي عبد الله عليه السلام: (لا يخلو قولك، أنهما اثنان من أن يكونا ضعيفين أو يكون أحدهما قوياً والآخر ضعيفاً، فإن كانا قويين فلم لا يدفع كلٌّ واحد منهما صاحبه وينفرد بالتدبير، وإن زعمت أن أحدهما قوي والآخر ضعيفٌ ثبت أنه واحد كما تقول للعجز الظاهر في الثاني)[1].

بقي إذا كانا ضعيفين فهو باطل بالضرورة، لأن الضعيف لا يستأهل أن يكون رباً، مع أن ما في الكون يدل على قوة الرب عز وجل المطلقة.

معنى التوحيد:

الاعتقاد بأن الله واحد، ليس مركباً من أجزاء وصفات، لأن وجود أي مركب يحتاج إلى أجزائه والى من يركبها، فالإنسان مثلاً يحتاج ليده، وفقدها نقص في وجوده، والوجود المحتاج محال أن يعطي الوجود لنفسه فضلاً عن غيره، وأن الله واحد لا شريك له في ألوهيته ولا في صفاته، فهو تعالى أحد، ولم يكن له كفواً أحد.

ثم إنه بعد أن عرفت أن التوحيد هو عدم الجزئية وعدم الشريك له سبحانه وتعالى فإنه يترتب على ذلك أنحاء من التوحيد:

الأول: التوحيد الصفاتي: فصفاته الذاتية عين ذاته بل كل صفة عين الصفة الأخرى كالعلم والقدرة والحياة.

الثاني: التوحيد الأفعالي: فكل ما يقع في العالم بإرادته، لقيام كل شيء به عز شأنه فلا حول ولا قوة ولا تأثير إلاّ به وبإذنه.

الثالث: التوحيد التشريعي: فالقانون والتشريع من حق المولى عز وجل لأنه العالم بخلقه وصلاحهم.

١- الكافي: ج١ ص٨٠.

الرابع: التوحيد العبادي والإطاعي: فهو تعالى وحده من يستحق العبادة والطاعة ولا يطاع غيره إلاّ إذا كانت طاعته في طول طاعته سبحانه، أي هو الذي أمر بطاعته، أو أن طاعة المطاع تؤدي لطاعته عز وجل كالأنبياء والحجج والعلماء والآباء.

الخامس: التوحيد الاستعاني: فلا يستعان بغيره لأنه مسبب الأسباب وعلة العلل، ولا يحدث أمر إلاّ بأذنه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

السادس: التوحيد الحُبي: فالحب والعشق له وحده فهو الكمال والجمال المطلق وهو واهب جميع النعم، وخالق المحبوبات جميعاً، بل موجد عاطفة الحب أفليس الواجب أن يكون الحب له سبحانه، وأن لا يعي القلب غيره، أما حب أحبابه سبحانه، وما يقرب إليه فهو حب له سبحانه كما هو واضح.

قوله عليه السلام:

(وأن محمداً رسول)

بعد أن أقر الإمام عليه السلام لله تعالى بالوجود والوحدانية أقر للرسول محمد صلى الله عليه وآله بالرسالة فيقع الكلام في أمور:

الأول:

لا يخفى أن محمداً صلى الله عليه وآله هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الذي خرج بمكة ودعا الناس لتوحيد الله سبحانه وعبادته ونبذ عبادة غيره، وادعى لنفسه النبوة والرسالة.

الثاني: تعريف النبي:

هو الإنسان المخبر عن الله تعالى بغير واسطة أحد من البشر، فبقيد الإنسان يخرج الملك، وبقيد المخبر عن الله يخرج المخبر عن غيره، وبقيد عدم واسطة بشر

يخرج الإمام والعالم فإنهما مخبران عن الله تعالى بواسطة النبي ﷺ[1]. وهذا التعريف لعله أقرب التعاريف لحقيقة النبي وستعرف طرق تلقي النبي من الله عز وجل لاحقاً.

الثالث: النبوة واجبة على الله تعالى:

فهو تعالى واجب الوجود الذي ترجع إليه جميع الممكنات (المخلوقات) وهذا يعني أن الإمكان مسلوب عنه، إذاً لا نقص فيه فهو الكامل المطلق، ويترتب على ذلك أنه عندما خلق الخلق فهو لغاية ولابد أن تكون من الشرافة بمكان، فهي إيصال الخلق إلى السعادة وصلاح المعاش والكمال اللائق بهم وهذا لا يتحقق إلاّ بأن يلطف بهم ويقربهم للوصول لتلك الغاية، ويبعدهم عن خلافها لأن هذا اللطف لازم الكمال المطلق له عز وجل، وإن لم يفعل ذلك اللطف كان نقصاً في ساحته تعالى عن ذلك، هذا مضافاً إلى أنه تعالى إذا لم يلطف بعباده كان ناقضاً لغرضه وهو قبيح، ولنمثل لذلك بهذا المثال العرفي: وهو الأب الذي يريد لولده العلم والأدب لكن لا يقربه لطلب العلم والأدب ولا يبعده عن دواعي الجهل والشر فهذا نقض لما يريد وهو قبيح، والقبيح محال عليه تعالى.

ثم إنه سبحانه متعالٍ عن خلقه لا يباشرهم ولا يخالطهم فوجب أن يرسل لهم رسلاً يخبرون عنه عز شأنه معلمين مرشدين مزكين مبشرين ومنذرين. فيثبت بذلك أن بعث الأنبياء وإرسال الرسل لطف إلهي من لوازم كماله سبحانه المطلق، وهو واجب عليه بسبب كماله عز شأنه، وتركه قبيح لأنه نقض لغرضه من خلق الخلق.

ثم إن إرسال الرسل حسن لا مانع منه فالمقتضي له موجود والمانع مفقود.

عن هشام بن الحكم عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال للزنديق الذي سأله من أين أثبت الأنبياء والرسل؟ قال: (إنا لما أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه فيباشرهم ويباشروه ويحاجهم ويحاجوه، ثبت أن له سفراء في خلقه يعبرون عنه إلى خلقه وعباده ويدلوهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم

---

١ – انظر كتاب الباب الحادي عشر للفاضل المقداد السيوري. ص٩٠.

وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه المعبرون عنه جل وعز وهم الأنبياء، صفوته في خلقه حكماء مؤدين بالحكمة مبعوثين بها غير مشاركين الناس على مشاركتهم لهم في الخَلق والتركيب في شيء من أحوالهم مؤيدين عند الحكيم العليم بالحكمة ثم ثبت ذلك في كل دهر وزمان مما أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين لكيلا تخلو الأرض من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته وجواز عدالته)[1].

الرابع: في نبوة نبينا محمد ﷺ:

فهو ﷺ ادعى النبوة بمكة، وظهرت على يده معاجز منها القرآن الكريم، وحيث أن ظهور المعجزة على يد الكاذب إغراء للعباد بالقبيح وهو مستحيل على الله تعالى، فيثبت بذلك أنه ﷺ نبي مرسل من قبل المولى عز وجل.

توضيح ذلك:

إن النبي يحتاج لادعاء النبوة، ولا يختلف اثنان في أن محمداً بن عبد الله ﷺ ادعاها بمكة ودعا الناس لتوحيد الله عز وجل وعبادته، ونبذ عبادة كل ما سواه.

ومن يدّعي النبوة لابد له من دليل على دعواه يدل على اتصاله بالحق سبحانه ليصدق الناس نبوته ويذعنوا لرسالته، وهذا الدليل هو المعجزة الخارقة للعادة، فلو جاء بما يستطيع غيره الإتيان به لما صدقه أحد، وهذه المعجزة يجب أن تكون مطابقة مع دعواه، وقد ظهرت على يده ﷺ معاجز عُدّت بألف، يكفينا منها القرآن الكريم تلك المعجزة التي أعجزت الجميع يتحدى بها كل مناوئ قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2].

فلو كان أعداء الإسلام قادرين على أن يبطلوا معجزة القرآن لما أحجموا عن ذلك، كيف وهم قاتلوا النبي ﷺ وقُتلوا وبذلوا المال والولد، فلو لم يكن معجزة

١- الكافي: ج١ ص١٦٨.

٢- سورة الإسراء: ٨٨.

لأراحوا أنفسهم ولأتوا بسورة واحدة على الأقل قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١).

مع كونهم أهل فصاحة وبلاغة وشعر ونثر قال عز من قائل: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾(٢) فتأمل قوله تعالى فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فهو قطع عليهم بالعجز الأبدي، فثبت بذلك أن القرآن المجيد معجزة النبي ﷺ الخالدة.

ثم إنه لو كان نبينا ليس نبيّ حقٍّ ولا رسول صدقٍ وجب على المولى عز وجل أن لا يظهر المعاجز على يديه ولما أعجز الناس بقرآنه لأنه سيكون بذلك مغرياً للعباد باتباع المزيف، وتصديق الكاذب وهو قبيح بحقه تعالى، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، فثبت بذلك صدق دعوى نبينا ورسولنا محمد ﷺ.

الخامس: الفرق بين النبي والرسول:

ذكرت فروق عديدة بين النبي والرسول منها ما جاء في روايات شريفة، ومنها ما فهم من الآيات القرآنية، أو بعض التتبع لأمر الرسالة والنبوة وإليك بعضاً منها:

١. عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ ما الرسول؟ وما النبي؟ قال: النبي الذي يرى في منامه ويسمع الصوت ولا يعاين المَلَك، والرسول الذي يسمع الصوت ويرى في المنام ويعاين المَلَك)(٣).

٢. النبي هو الذي يبين للناس صلاح معاشهم ومعادهم من أصول الدين وفروعه على ما اقتضته عناية الله من هداية الناس إلى سعادتهم، والرسول هو الحامل لرسالةٍ خاصة مشتملة على إتمام الحجة يستتبع مخالفته هلاكاً أو عذاباً أو نحو

١- سورة يونس: ٣٨.

٢- سورة البقرة: ٢٣-٢٤.

٣- بحار الأنوار: ج١١ ص٤١.

ذلك، قال تعالى ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[١][٢].

٣. النبي من يدعو إلى كتاب مَن كان قبله؛ والرسول من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه[٣].

٤. إن بينهما ترادف وعليه فلا فرق بينهما وهو ضعيف[٤].

والمتحصل أن كلاهما مخبر عن الله تعالى، والرسول أعلى مرتبة من النبي وأن كل رسول نبي ولا يصح العكس، وأنه ربما تجمع النبوة والرسالة لشخص، وبالتالي عرفنا أن الرسول محمد ﷺ له مقام النبوة أيضاً وتبين ما أراده أمير المؤمنين عليه السلام بقوله (رسوله).

قوله عليه السلام:

(اختاره بعلمه وارتضاه بخبرته)

أي إنه سبحانه اختار محمداً للنبوة والرسالة لعلمه به، وارتضاه ليؤدي عنه لأنه خبير بعباده يعلم الصالح من الطالح والطاهر من الملوث والمُخلص من المشوب، وقد أجمع علماء الإسلام أن لا خبرة للخلق في اختيار النبي والرسول لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾[٥] فقد ذكر المفسرون أنها نزلت في الرد على من قال: لِمَ لَمْ يرسل غير هذا الرسول، ولأنه لو جعل الاختيار للناس لوقع الفساد والاختلاف، ولأن اختياره سبحانه وتعالى لرسله وأنبيائه لطف منه سبحانه بعباده فهو واجب عليه لكماله عز وجل.

١- سورة النساء: ١٦٥.

٢- الميزان: ج٢ ص١٣٩.

٣- قصص الأنبياء: ص٨.

٤- قصص الأنبياء: ص٨.

٥- سورة القصص: ص٦٨.

قوله عليه السلام:

(وأنّ الله باعثُ مَن في القبور)

في هذا المقطع شهادة منه عليه السلام بأصل المَعاد، فهو سبحانه يُخرِج مَن في القبور يومِ القيامة، فالبعث اسمٌ لإخراج الخلق من قبورهم إلى الموقف ومنه قوله تعالى: ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾[١] [٢].

والمعاد هو عَوْدُ الأرواح والأجساد ليوم الجزاء، فبعد الإيمان بالله تعالى وبرسله عليهم السلام وبالكتب وبرسالة محمد صلى الله عليه وآله والقرآن المجيد يلزم الاعتقاد بالمعاد، لأن القرآن أخبر عن ذلك بآيات كثيرة جداً وجميع الرسل والكتب، والأمر في غاية الظهور بعد إمكان البعث والنشور وعدم استحالة ذلك قال جلّ شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾[٣] وقال جل جلاله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[٤].

فالقرآن يشير لأمر ضروري في غاية الوضوح فالقادر على الإيجاد قادرٌ على الإعادة.

ولمزيد من اليقين نذكر بعض الأدلة:

الأول: دليل الحكمة:

لو لم يكن مَعاد لكان خلق الإنسان عبثاً وسفهاً، فهو تعالى خلق الإنسان وكلّفه وابتلاه، فإذا لم يكن وراء ذلك فائدة عقلائية فهو عبث وسفه، والفائدة في حقه تعالى من خلق الإنسان لا تتصور فهو غني بذاته، فوجب أن تكون الفائدة راجعة للإنسان، كالقرب منه تعالى والرضوان، ومرافقة الأطهار والجنان.

١- سورة يس: ٥٢.

٢- انظر الفروق اللغوية: ص١٠٣.

٣- سورة الحج: ٥.

٤- سورة يس: ٧٨-٧٩.

ولنمثل له بإنسان يصنع أشياء مهمة ونفيسة وما إن يتم صنعه يخربه ويتلفه هذا سفه وعبث.

فلو كان غاية الإنسان الفناء والإعدام كان ذلك عبثاً وسفهاً وهو محال على الحكيم الكامل تعالى فوجب أن يكون بعثاً ومعاداً.

الثاني: دليل العدل:

الله تعالى عادل[١] لا يظلم، فإذا لم يكن معاد وجزاء كان ذلك ظلماً فاحشاً، فإنه يتساوى المطيعُ والعاصي، والبرُّ والفاجر، والمقتولُ والقاتل، بل ومن يقتل مليوناً والضحية، والظلم قبيح لا يجوز على الواجب الكامل سبحانه وتعالى فوجب أن يكون مَعاداً للثواب والعقاب.

الثالث: دليل الوعد:

وهو مكون من مقدمة نقلية وهي أنه تعالى وعد بالمعاد، ومقدمة عقلية وهي قبح الخلف بالوعد، وهو لا يُتصوّر في ساحة المولى عز وجل، فوجب الوفاء بالوعد.

النتيجة:

إن البعث وأحوال المعاد ستقع البتة وسيحشر الناس لأنه تعالى لا يصدر منه العبث، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾[٢].

ولأنه سبحانه لا يظلم، قال عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ۞ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[٣].

١- سيأتي دليل عدله تعالى في الحديث من الفقرة التالية.

٢- سورة المؤمنون: ١١٥-١١٦.

٣- سورة الجاثية: ٢١-٢٢.

ولأنه تبارك وتقدس وعد بذلك وقال: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾[١] وخلف الوعد لا يتصور بحقه سبحانه، قال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[٢].

قوله عليه السلام :

(وسائلُ الناس عن أعمالهم)

في هذا المقطع دلالة على عقيدة العدل الإلهي الذي يجب على كل مؤمن أن يؤمن بها، فهو تعالى سيحاسب الناس على أعمالهم ليثيب المحسنين ويعاقب المسيئين إن أراد، ومعنى العدل: إنه تعالى عادل في مخلوقاته غير ظالم لهم، لا يفعل قبيحاً ولا يخل بواجب، ولا يجور في قضائه ولا يحيف في حكمه وابتلائه يثيب المطيعين وله أن يعاقب العاصين ولا يكلف الخلق ما لا يطيقون، ولا يعاقبهم زيادة على ما يستحقون، ولا يقابل مستحق الأجر والثواب بأليم العذاب والعقاب، وأنه تعالى لم يجبر عباده على الأفعال، سيما القبيحة ويعاقبهم عليها[٣].

ولا يحتاج كل ذلك لدليل بعد ما جاء من آيات في كتاب الله العزيز كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[٤]، وبعد الضرورة والبديهية والارتكاز الموجود لدى كل عاقل فهو تعالى الكامل المطلق لكن ثمة ما يستدل به لمن أراد:

الأول: إن ضدَّ العدلِ الجورُ، وهو قبيح لا يجوز على الباري عز وجل.

الثاني: إن الظالم إما أن يكون محتاجاً للظلم لضعفه، وهو تعالى القوي العزيز، والكون والتصرف فيه دليل قوته وقدرته اللامحدودة.

١- سورة الحج: ٧.

٢- سورة آل عمران: ٩.

٣- انظر حق اليقين: ص٨٣.

٤- سورة النساء: ٤٠.

وإما أن يكون عابثاً لاعباً وهما لا يتصوران بحقه سبحانه وتعالى فثبت كونه عادلاً.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: (التوحيد أن لا تتوهمه، والعدل أن لا تتهمه)، لأن التهمة إنما تتوجه لغير العادل الحكيم الذي يعطي كل ذي حق حقه ويضع الأشياء في مواضعها.

روايتان في الجنة والنار وللعاقل الاختيار:

عن ثوير عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: إذا صار أهل الجنة في الجنة ، ودخل ولي الله إلى جناته ومسكنه، واتكى كل مؤمن منهم على أريكة حفته خُدّامه وتهدّلت عليه الثمار، وتفجّرت حوله العيون، وجرت من تحته الأنهار وبسطت له الزرابيّ، وصُفَّت له النمارق، وأتته الخُدّام بما شاءت شهوته من قبل أن يسألهم ذلك، قال: ويخرج عليهم الحور العين من الجنان فيمكثون بذلك ما شاء الله.

ثم إن الجبار يناديهم فيقول هم أوليائي وأهل طاعتي وسكان جنتي في جواري، ألا هل آتيكم بخير مما أنتم فيه، فيقولون ربنا وأي شيء خير مما نحن فيه، نحن فيما اشتهت أنفسنا وأعيننا من النعم في جوار الكريم، قال: فيعود عليهم بالقول، فيقولون: ربنا نعم فَأْتنا بخير مما نحن فيه، فيقول لهم تبارك وتعالى: رضاي عنكم ومحبتي لكم خير وأعظم مما أنتم فيه، قال: فيقولون: نعم ربنا، رضاك عنا ومحبتك لنا خير لنا وأطيب لأنفسنا، ثم قرأ علي بن الحسين عليهما السلام: ﴿وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1][2].

وعن أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت له يا ابن رسول الله خوِّفْني فإنّ قلبي قد قسا، قال عليه السلام: يا أبا محمد استعد للحياة الطويلة، فإن جبرائيل جاء

١- سورة التوبة: ٧٢.

٢- بحار الأنوار: ج٨ ص١٤١.

إلى النبي ﷺ وهو قاطب، وقد كان قبل ذلك يجيء وهو مبتسم، فقال رسول الله ﷺ يا جبرائيل جئتني اليوم قاطباً؟، فقال: يا محمد قد وُضِعت منافخُ النار، فقال: وما منافخ النار يا جبرائيل؟ فقال: يا محمد إن الله عز وجل أمر بالنار فنفخ عليها ألف عام حتى ابيضّت، ثم نفخ عليها ألف عام حتى احمرّت، ثم نفخ عليها ألف عام حتى اسودّت، فهي سوداء مظلمة لو أن قطرة منها قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها، ولو أن حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على الدنيا لذابت من حرها، ولو أن سربالاً من سرابيل أهل النار علق بين السماء والأرض لمات أهل الدنيا من ريحه، قال: فبكى رسول الله وبكى جبرائيل، فبعث الله إليهما ملكاً فقال لهما إن ربكما يقرؤكما السلام ويقول قد آمنتكما أن تذنبا ذنباً أعذبكما عليه.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: فما رأى رسول الله جبرائيل مبتسماً بعد ذلك، ثم قال: إن أهل النار يعظمون النار وإن أهل الجنة يعظمون الجنة والنعيم، وإن جهنم إذا دخلوها هووْا فيها مسيرة سبعين عاماً، فإذا بلغوا أعلاها قمعوا بمقامع من الحديد، هذه حالهم وهو قول الله عز وجل: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[١] ثم تُبدّل جلودهم غير الجلود التي كانت عليهم، قال عليه السلام: حسبك يا أبا محمد، قلت: حسبي حسبي[٢].

قوله عليه السلام:

(عالمٌ بما في الصدور)

قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[٤] وقال

١- سورة الحج: ٢٢.

٢- مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة للتقوي: ص٣٩٩.

٣- سورة آل عمران: ١١٩.

٤- سورة ق: ١٦.

عزّ من قائل: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[١]، والعلم هو الانكشاف والظهور وهو ينقسم إلى قسمين:

الأول: حصولي:

وهو ما إذا كان انكشاف العلوم بانعكاس صورة منه في نفس العالم وهو مثل انعكاس الصورة في المرآة من غير حضور نفس المعلوم الخارجي في النفس أو الذهن.

الثاني: حضوري:

وهو ما كان الانكشاف للعالم بحضور المعلوم بعينه ويكون وجوده متقوّماً بوجود العلم نفسه بحيث ينتفي أصل المعلوم وحقيقته بانتفاء العلم به، وذلك مثل علم الإنسان بجوعه وعطشه، أو كعلم الإنسان بنفس الصورة المرتسمة في ذهنه لشيء من الأشياء، فهي توجد بوجود العلم وتنتفي بانتفائه.

وعليه فلا يمكن أن يكون علمه تعالى بالمعلومات حصولياً لمحاذير، منها: استغناء المخلوقات عن علمه تعالى الله عن ذلك، لأن العلم من الصفات الثبوتية له سبحانه، فهو كالقدرة والحياة، وهذه الصفات عين ذاته تعالى فلا مغايرة وإثنينية، لأنه لو كانت صفاته تعالى التي يجب أن تثبت له غير ذاته لزم أنها إما قديمة أو حادثة، فعلى الأول يلزم تعدد القدماء فينخرم التوحيد، وإن كانت حادثة لزم خلوُّه منها قبل حدوثها، فلو كان العلم حادثاً، هذا يعني أنه تعالى كان جاهلاً قبل حدوث العلم تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

لذا جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: (وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمَن وصف الله فقد قَرنَه، ومَن قَرنَه فقد ثنّاه، ومَن ثنّاه فقد جزّأه، ومَن جزّأه فقد جهله...)[٢].

إذا عرفت هذا فوجب كون علمه سبحانه بمخلوقاته بحيث تكون محتاجة له

---

١ – سورة طه: ٧.

٢ – نهج البلاغة. الخطبة الأولى.

منكشفة عنده ظاهرة لديه، والجزم بأن علمه بخلقه من قسم الحضوري كما قال المتكلمون صعب لاستلزام ذلك العلم ببعض شؤون ذاته التي لا يعلم بها إلا هو تبارك وتعالى والله تعالى العالم.

والذي يهوّن الخطبَ أنه لا يجب معرفة كيف يعلم المولى سبحانه بخلقه، بل الواجب هو الإذعان بما جاء عنه وأخبر به هو سبحانه كما في الآيات السابقة وغيرها فقد جاء عن إبراهيم بن عمر قال: (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن أمر الله كله عجيب إلاّ أنه قد احتج عليكم بما قد عرفكم من نفسه)[١].

وعن الفتح بن يزيد عن أبي الحسن عليه السلام قال: (سألته عن أدنى المعرفة، فقال: الإقرار بأنه لا إله غيره ولا شبه له ولا نظير وأنه قديمٌ مثبت موجود غير فقيد وأنه ليس كمثله شيء)[٢].

وعن أيوب بن نوح: إنه كتب إلى أبي الحسن عليه السلام: (يسأله عن الله عز وجل أكان يعلم الأشياء قبل ان خلق الأشياء وكوّنها أو لم يعلم ذلك حتى خلقها وأراد خلقها وتكوينها فعلم ما خلق عندما خلق وما كوّن عندما كوّن؟

فوقع بخطه: لم يزل الله عالماً بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء كعلمه بالأشياء بعدما خلق الأشياء)[٣].

وعن الكاهلي قال: (كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام في دعاء، الحمد لله منتهى علمه، فكتب إلي لا تقولن منتهى علمه فليس لعلمه منتهى ولكن قل: منتهى رضاه)[٤].

١- الكافي: ج١ ص٨٦.
٢- الكافي: ج١ ص٨٦.
٣- الكافي ج١ ص١٠٧.
٤- الكافي ج١ ص١٠٧.

قوله عليه السلام:

(ثم إني أوصيك يا حسن وكفى بك وصياً بما أوصاني به رسول الله صلى الله عليه وآله)

ومن هنا شرع أمير المؤمنين عليه السلام بتوجيه وصية النبي صلى الله عليه وآله إلى ولده الحسن عليه السلام، ولا يخفى ما في ذلك من إشارة لموضوع الخلافة والإمامة فلابد من إتمام ما انتهجناه والحديث عن خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله، فنقول:

لا يخفى على كل مسلم أن هناك اتجاهين عند المسلمين في قضية خلافة النبي صلى الله عليه وآله، اتجاه يقول بالنص والتعيين، وآخر يقول: بأن النبي صلى الله عليه وآله ترك ذلك للأمة من بعده ولم يُعين ولم يُنصّب ولم يؤمر بذلك من قبل المولى عز وجل، وعمدة الأدلة عند أصحاب هذا الاتجاه وهم (السُّنة) أمران:

الأول: آية الشورى:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[1]، ومن الواضح أنه يجب صرفها عن المقام، ولا يمكن الاستدلال بها على المطلب لأنه لو أمكن ذلك لما تسنى للنبي صلى الله عليه وآله مخالفتها بالنصب والتعيين، لأنه تعالى يقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[2]، ثم لو كان ذلك لأشار النبي صلى الله عليه وآله لذلك ولقال: إن الأمر بعدي بيد الأمة من تختاره فهو الخليفة، مثلاً، لكن لم ينقل أحد ذلك عنه صلى الله عليه وآله، بل المنقول خِلافه، خاصة في كتب أصحاب هذا الاتجاه (السُّنة)، فلقد نقلوا ورووا عن النبي صلى الله عليه وآله أنه ولى علياً عليه السلام على المسلمين وأمّره عليهم واختاره بأمر المولى عز وجل ليكون خليفة وإماماً وهادياً لأمته من بعده وستعرف ذلك بجلاء فيما بعد إن شاء الله تعالى.

١- سورة الشورى: ٣٨.

٢- سورة الحاقة: ٤٤.

الثاني: الإجماع:

إن المسلمين أجمعوا على أن الخلافة والإمامة تكون بيد الأمة، وجوابه: لو سلّمنا بأن إجماع الأمة حجة، لكن بعد أن لا يخالف النصوص من القرآن والسنة، فلو خالف ولو نصاً واحداً لأصبح بلا قيمة ولسقط عن الاعتبار، ولأوضح بمثال: جاء عن النبي ﷺ أنه قال: (إنما الأعمال بالنيات)، فالنية وإخلاصها من شروط صحة وقبول الصلاة، فلو اجتمعت الأمة على أن النية ليست بشرط، وأنه لا داعي للنية، وأن العبادة يأتي بها كيف شاء، فهل هذا الإجماع يكون حجة وتكون له قيمة في مقام العمل؟ الجواب: كلا، ولا يقول بذلك أحد من المسلمين.

والمقام كذلك، فما قيمة هذا الإجماع المدعى في مقابل النصوص المتكثرة التي جاءت عن النبي ﷺ الدالة على التعيين والتنصيب.

ثم إن هذا الإجماع واقعاً لم يتحقق لأن جملة من بني هاشم ومجموعة من أفاضل الأصحاب لم يكونوا في السقيفة عندما تمت البيعة لأبي بكر ومن الانصار من لم يبايع حتى قتل من بعد.

ويُجاب الدليلان بجواب مشترك: حيث إنه لو كان الاستخلاف شورى وإجماعاً فلماذا لم يعمل بذلك أبو بكر ولم جعلها لعمر من بعده، ولماذا جعلها عمر في ستة من المسلمين فقط بعده، أوَليس في ذلك ذكرى لمن ألقى السمع وهو شهيد، فقد يقال، أنى تصرفون وما لكم كيف تحكمون؟!!

أما أصحاب اتجاه النصب والتعيين (الشيعة)، فاستدلوا بأدلة لا تحصى منها ما هو متداخل بين القرآن والسنة، ومنها ما ليس كذلك ومنها عقلية إليك بعضها بعد مقدمة:

إن النبي ﷺ سار على سنن الأنبياء من قبله ولم يكن بدعاً منهم فالذي يطلع على بعض سننهم يجد أنهم عليهم السلام قد استخلفوا وأوصوا من بعدهم لأفراد، أما أنبياء أو أوصياء، لذلك نبّه رسول الله ﷺ في حديث المنزلة وقال: (إلا أنه لا نبيّ بعدي)، فتأمل وفكر لتعرف الحق، وإليك هذا الحديث من الصادق المصدق الثقة عند جميع المسلمين حفيد رسول رب العالمين جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام: قال: قال رسول الله ﷺ أنا سيد النبيين،

ووصيي سيد الوصيين وأوصياؤه سادة الأوصياء، وإن آدم عليه السلام سأل الله عز وجل أن يجعل له وصياً صالحاً، فأوحى الله إليه: أني أكرمت الأنبياء بالنبوة، ثم اخترت خلقي وجعلت خيارهم الأوصياء، ثم أوحى الله عز وجل إليه يا آدم، أوصِ إلى شيث النبي، فأوصى آدم عليه السلام إلى شيث وهو هبة بن آدم، وأوصى شيث إلى ابنه شيان وهو ابن نزلة الحوراء التي أنزلها الله على آدم من الجنة، فزوجها ابنه شيث، أوصى شيان إلى مجلث وأوصى مجلث إلى محوت، وأوصى محوت إلى علميشا، وأوصى علميشا إلى أخنوخ وهو إدريس النبي وأوصى إدريس إلى ناحور، ودفعها ناحور إلى نوح النبي عليه السلام، وأوصى نوح إلى سام، وأوصى سام إلى عثامر، وأوصى عثامر إلى برغيشاشا وأوصى برغيشاشا إلى يافث، أوصى يافث إلى بره، وأوصى بره إلى جفيسة، وأوصى جفيسة إلى عمران، ودفعها عمران إلى إبراهيم الخليل عليه السلام، وأوصى إبراهيم إلى ابنه إسماعيل، وأوصى إسماعيل إلى إسحاق، وأوصى إسحاق إلى يعقوب، وأوصى يعقوب إلى يوسف، وأوصى يوسف إلى يثريا، وأوصى يثريا إلى شعيب، وأوصى شعيب إلى موسى بن عمران، وأوصى موسى إلى يوشع بن نون وأوصى يوشع إلى داود وأوصى داود إلى سليمان وأوصى سلمان إلى آصف بن برخيا، وأوصى آصف إلى زكريا، ودفعها زكريا إلى عيسى عليه السلام أوصى عيسى إلى شمعون بن حمون الصفا، وأوصى شمعون إلى يحيى بن زكريا وأوصى يحيى إلى منذر وأوصى منذر إلى سليمة وأوصى سليمة إلى بردة، وأنا أدفعها إليك يا علي وأنت تدفعها إلى وصيك، ويدفعها وصيك إلى أوصيائك من ولدك واحداً بعد واحد حتى تدفع إلى خير أهل الأرض بعدك ولتكفرنّ بك الأمة، ولتختلفنّ عليك اختلافاً شديداً، الثابت عليك كالمقيم معي، والشاذ عنك في النار والنار مثوى الكافرين)[١].

وهذا الحديث وإن لم يكن مروياً في كتب أصحاب اتجاه (الترك للأمة) فإني أوردته للاستشهاد والتأييد، وإلاّ ففي ما يأتي من أدلة وأحاديث كفاية وزيادة لمن لم يتبع الهوى وطلب الحق والحقيقة.

١- الامالي، للطوسي: ص٤٤٣.

من أدلة اتجاه النص والتعيين:

١. **حديث في الخلافة:** هو حديث الدار فعن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ دعاني النبي فقال: يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين... إلى أن قال ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي من بعدي؟ فأحجم القوم عنها جميعاً وقلت: وإني لأحدثهم سناً.. أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي، ثم قال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا، قال: فقام القوم يضحكون فيقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع)[١]. والحديث يدل على أن أمر الإنذار وطلب الوزارة على أن يكون القابل خليفة ووصياً برمته يرجع لله سبحانه وتعالى.

حديثان في الولاية: عن عمار بن ياسر قال: (وقف على علي بن أبي طالب سائل وهو راكع في تطوع، فنزع خاتمه فأعطاه السائل، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله فأعلمه ذلك، فنزلت على النبي صلى الله عليه وآله هذه الآية : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ فقرأها رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه)[٢].

عن زيد بن أرقم قال: (لما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من حجة الوداع ونزل غدير خم أمر بدوحات فقممن، فقال: إني قد دُعيت فأجبت، وإني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما،

١- انظر الكامل في التاريخ: ج١ ص٥٨٦؛ وتفسير ابن كثير: ج٣ ص٣٥٢؛ والبداية والنهاية: ج٣ ص٤٠ وغيرها من مصادر المسلمين.

٢- انظر المعجم الاوسط: ج٦ ص٢١٨؛ ومجمع الزوائد: ج٧ ص١٧؛ والاحاديث والاثار: ج ص٤١٠؛ والدر المنثور: ج٣ ص١٠٥ وغيرها.

فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، ثم قال: إن الله عز وجل مولاي، وأنا مولى كل مؤمن، ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه فقال: من كنت مولاه فهذا وليه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه وذكر الحديث بطوله)[١]. قال ابن حجر العسقلاني في شرح صحيح البخاري: (وأما حديث من كنت مولاه فعلي مولاه، فقد أخرجه الترمذي والنسائي، وهو كثير الطرق جداً، وقد استوعبها ابن عقده في كتاب مفرد، وكثير من أسانيدها صحاح وحسان...)[٢]. وفي حديث الولاية قطع رسول الله ﷺ الطريق على كل مؤوّل، ومشكّك ومحرّف وجاحد حين ذكرهم بولاية الله تعالى عليه ﷺ وولايته على المؤمنين المجعولة في كتاب الله عز وجل بقوله: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[٣] فإنه ﷺ أخذ منهم الإقرار بولايته عليهم وأوليته بقوله: (وأنا مولى كل مؤمن) فلا يبقى أدنى شك أن المراد من المولى هو ولاية أمر المسلمين.

٢. **حديث في وجوب طاعته:** قوله ﷺ: (مَن أطاعني فقد أطاع الله، ومَن عصاني فقد عصى الله، ومَن أطاع علياً فقد أطاعني، ومَن عصى علياً فقد عصاني)[٤]. وذكر صاحب المستدرك بعد هذا الحديث (هذا حديث صحيح ولم يخرجاه)[٥] أي لم يخرجه البخاري ومسلم.

٣. **أحاديث في أنه عليه السلام مع القرآن والحق، والقرآن والحق معه:**

فعنه ﷺ أنه قال: (عليّ مع القرآن والقرآن مع علي)[٦]، وقال: (علي مع الحق، والحق مع علي)[٧] وقال: (رحم الله علياً، اللهم أدر الحق معه حيث

١- المستدرك على الصحيحين: ج٣ ص١٠٩.

٢- فتح الباري ج٧ ص٦١.

٣- سورة الأحزاب: ٦.

٤- المستدرك على الصحيحين: ج٣ ص١٣١، ج٣ ص١٤٩.

٥- المستدرك على الصحيحين: ج٣ ص١٤٩.

٦- ينابيع المودة: ج١ ص١٧٣ وغيره مصادر كثيرة

٧- مجمع الزوائد: ج٩ ص١٣٤، وغيره مصادر كثيرة.

دار)[١]. وهنا لا ينبغي تجاوز هذه الأحاديث بلا تدبر، فربما نفهم أن علياً مع القرآن، أما القرآن مع علي فلا يفهمه إلا أولوا العقول والألباب. أما دعاء النبي ﷺ له بإدارة الحق معه حيث دار فهنا تكل العقول وتجف الأقلام.

٤. **حديث في السيادة والإمامة والقيادة:** فعنه ﷺ: (أوحي إليّ في علي ثلاثة أشياء ليلة أسريَ بي: أنه سيد المؤمنين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين)[٢].

٥. **حديث المنزلة:** وقد تقدم في بحث الأخوّة فقد قال ﷺ لعلي عليه السلام: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي)، فلو لم يصدر عن النبي ﷺ بحق أمير المؤمنين علي غير هذا الحديث لكفى دليلاً على أحقّيته بالإمامة والخلافة، واحتوائه عليه السلام لجميع الفضائل التي كانت لرسول الله ﷺ إلاّ النبوة، لأن رسول الله ﷺ لم يقارن بين أخوّتهما وأخوّة هارون وموسى اعتباطاً، ولم يذكر قرينة (إلا أنه لا نبيّ بعدي) عبثاً فهو يريد أن يثبت ما لهارون في أمة موسى عليه السلام لعلي في أمة محمد ﷺ والمستند هو القرآن الكريم.

قال الشيخ محمد بن الحسن الطوسي أعلى الله مقامه: (ما روي عن النبي ﷺ من قوله: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي، فأثبت له جميع منازل هارون من موسى إلا ما استثناه لفظاً من النبوة، وعرفنا بالعرف أنه لم يكن أخاه لأبيه وأمه، وقد علمنا أن من منازل هارون من موسى، أنه كان مفترض الطاعة على قومه، وأفضل رعيته ممن شدّ الله به أزره فيجب أن تكون هذه المنازل ثابتة له، وفي ثبوت فرض طاعته ثبوت إمامته وقد نطق القرآن ببعض منازل هارون من موسى: قال الله تعالى حكاية عن موسى أن سأله تعالى فقال: ﴿اجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۞ هَارُونَ أَخِي ۞ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ وفي آية أخرى: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ وقال تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ فوجب بتلك ثبوت هذه المنازل لأمير المؤمنين عليه السلام)[٣].

١- سنن الترمذي: ج٥ ص٦٣٣ وغيره مصادر كثيرة.

٢- انظر المعجم الصغير: ج٢ ص١٩٢؛ ومجمع الزوائد: ج٢ ص١٢١؛ والمستدرك على الصحيحين: ج٣ ص١٤٠.

٣- الاقتصاد. للشيخ الطوسي. ص٢٢٢ هامش.

وعليك أن تصدق دعوى النبي ﷺ لعلي بالخلافة فهي بنفسها دليل ومستند لأن المسلمين جميعاً أجمعوا على أن ما صح من سنته ﷺ حجة على كل مسلم، وإن أبَيْت فقد عرفت أن دليل الخلافة كان على أكتاف قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾، والولاية كان من وحي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ وقوله: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ والمنزلة والوصاية كان قائماً على ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۞ هَارُونَ أَخِي...﴾. ثم إنه سبحانه قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾.

ثبت بذلك أنه ﷺ نص على خليفته ووصيه من بعده وأن ذلك من قبله سبحانه وتعالى لأن السنة القولية له ﷺ إنما هي منه سبحانه، والقرآن هو المستند لهذه السنة كما عرفت وإنما هذه الوجوه المذكورة غيض من فيض فيما جاء بحق أمير المؤمنين عليه السلام.

أما عن العقل فالإمام هو الحافظ للشريعة والعارف بتأويل الكتاب، والهادي للأمة، وعليه فالإمامة لطف يقرب الناس للطاعة ويبعدهم عن المعصية فهي كالنبوة من هذه الجهة فهي واجبة عليه سبحانه، وإلا فإن ترك سبحانه جَعْل الأئمة فهذا نقض لغرضه من إيصال الناس للكمال والهداية والعيش الموافق للقوانين الإلهية ونقض الغرض قبيح وهو محال بحقه سبحانه، فوجب نصب الخليفة للنبي ﷺ من قبله تعالى بل وجعل الخلفاء والأئمة بعد الوصي والخليفة المباشر للنبي ﷺ لنفس العلة، قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[1] وهذا في كل الأمم فكل أمة تحتاج لموقنٍ صابرٍ هادٍ بأمر الله تعالى بل كل زمان.

ثم إن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2] تدل على عصمة الرسول ﷺ لأنه تعالى عطف طاعة الرسول ﷺ على

١- سورة السجدة: ٢٤.

٢- سورة النساء: ٥٩.

طاعة نفسه، وتدل على عصمة أولي الأمر المقصودين في هذه الآية لأنه من المحال بحقه سبحانه أن يأمر بطاعة الظالم والفاسق، لذا لا يمكن بحال تفسير أُولي الأمر في الآية المباركة بالحكام والملوك والرؤساء والخلفاء غير المنصوص عليهم شرعاً لأنه ثبت ظلم البعض، وفسق البعض، وخطأ البعض الكثير، فلا يجوز عليه سبحانه بحكم العقل والشرع أن يأمر بطاعة غير الكامل ويقرن طاعته بطاعة رسوله المقرونة بطاعة ذاته، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، فوجب أن يكون أولو الأمر معصومين ولا يعرف المعصوم إلا هو سبحانه وهذا بديهي.

ثم إنه على ذلك وجب أن يكون في كل زمان إمام حجة على الخلق ولذلك جاء عن النبي ﷺ: (من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية...)[١] هذا بنص مدرسة الصحابة، أما بنص مدرسة أهل البيت عليهم السلام ف(عن الحارث بن المغيرة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام : قال رسول الله ﷺ: من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية؟ قال: نعم، قلت: جاهلية جهلاء أو جاهلية لا يعرف إمامه؟ قال: جاهلية كفر ونفاق وضلال)[٢].

وعن عيسى بن السري أبي اليسع قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أخبرني بدعائم الإسلام التي لا يسع أحدٌ التقصير عن معرفة شيء منها، الذي من قصر عن معرفة شيء منها فسد دينه ولم يقبل الله منه عمله ومن عرفها وعمل بها صلح له دينه وقبل منه عمله ولم يضق به مما هو فيه لجهل شيء من الأمور جهله؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله والإيمان بأن محمداً رسول الله ﷺ والإقرار بما جاء به من عند الله وحق في الأموال والزكاة والولاية التي أمر الله عز وجل بها: ولاية آل محمد ﷺ... قال: نعم قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وقال رسول الله ﷺ: مَن مات ولا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية، وكان رسول الله ﷺ وكان علياً عليه السلام وقال الآخرون، كان معاوية، ثم كان الحسن عليه السلام ثم كان الحسين عليه السلام وقال الآخرون: يزيد بن معاوية وحسين بن

١- مسند أبي داوود: ص٢٥٩.

٢- الكافي: ج١ ص٣٧٧.

علي ولا سواء ولا سواء، قال: ثم سكت ثم قال: أزيدك فقال له: حكم الأعور: نعم جعلت فداك، قال: ثم كان علي بن الحسين ثم كان محمّد بن علي أبو جعفر وكانت الشيعة قبل أن يكون أبو جعفر وهم لا يعرفون مناسك حجهم وحلالهم وحرامهم حتىّ صار الناس يحتاجون إليهم من بعد ما كانوا يحتاجون إلى الناس وهكذا يكون الأمر والأرض لا تكون إلا بإمام ومن مات ولا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية، وأحوج ما تكون إلى ما أنت عليه إذا بلغت نفسك هذه – وأهوى بيده إلى حلقه– وانقطعت عنك الدنيا، تقول: لقد كنت على أمر حسن)[١].

عدّة الأئمة في كتب مدرسة الصحابة:

روى أهل الحديث في مدرسة الصحابة أحاديث كثيرة تحصر عدد الأمراء والخلفاء والولاة في اثني عشر لا أكثر ولا أقل وإليك بعض هذه الأحاديث:

الأول:

في كتاب البخاري عن جابر بن سمرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: يكون اثنا عشر أميراً فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: إنه قال كلهم من قريش[٢].

الثاني:

في كتاب مسلم عن جابر بن سمرة قال: دخلت مع أبي على النبي ﷺ، فسمعته يقول: إن هذا الأمر لا ينقضي حتىّ يقضي فيهم اثنا عشر خليفة. قال: ثم تكلم بكلام خفي عليّ، قال، فقلت لأبي: ما قال؟ قال: كلهم من قريش[٣].

الثالث:

في كتاب مسلم وفي مسند أحمد: عن جابر بن سمرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً، ثم تكلم النبي بكلمة خفيت عليّ، فسألت أبي: ماذا قال رسول الله ﷺ؟ فقال: كلهم من قريش[٤].

١– الكافي: ج٢ ص٢١.

٢– البخاري: ج٨ ص١٢٧.

٣– مسلم: ج١٢ ص٢٠١.

٤– مسلم : ج١٢ ص٢٠١، مسند أحمد: ج٥ ص٨.

الرابع:

في مستدرك الحاكم عن مسروق قال: كنا جلوساً ليلة عند عبد الله يقرؤنا القرآن فسأله رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن هل سألتم رسول الله ﷺ كم يملك هذه الأمة من خليفة؟ فقال: عبد الله ما سألني عن هذا أحد منذ قدمت العراق قبلك؟ قال: سألناه فقال: اثنا عشر، عدة نقباء بني إسرائيل[١].

الخامس:

في مسند أحمد بن حنبل: عن جابر بن سمرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ بعرفات فقال: لا يزال هذا الأمر عزيزاً منيعاً ظاهراً على من ناواه حتى يملك اثنا عشر كلهم، قال فلم أفهم ما بعد، قال: فقلت لأبي: ما قال بعدما، قال: كلهم من قريش)[٢].

وغيرها كثير ومن أحب فليراجع، ولقد أفاد وأجاد أحد العلماء[٣] بذكر نكات في هذه الأحاديث لابد من الوقوف عليها وهي:

١. حصر الخلفاء في اثني عشر.
٢. استمرار خلافة هؤلاء الاثني عشر إلى يوم القيامة.
٣. توقف عزة الإسلام وأمنه ومنعتهما عليهم.
٤. إن قوام الدين علماً وعملاً بهم لأن قوامه العلمي بمفسر للكتاب ومبين لحقائقه ومعارفه، وقوامه العملي بمنفذٍ لقوانينه وأحكامه العادلة، وهذان الغرضان المهمان لا يتيسران إلا بتحقق شروط خاصة في هؤلاء الاثني عشر.
٥. إن اختياره ﷺ للتنظير نقباء بني إسرائيل مع أن النظير للعدد متعدد تنبيه على أن خلافتهم ليست بانتخاب الناس، بل تعيين من الله، فقد قال الله تعالى عن النقباء: ﴿وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾[٤].
٦. إن هؤلاء الأئمة كلهم من قريش.

١- المستدرك: ج٤ ص٥٠١.

٢- مسند أحمد: ج٥ ص٩٣

٣- الشيخ وحيد الخراساني في منهاج الصالحين: ج١ ص١٩٧.

٤- سورة المائدة: ١٢.

قال: فهل يوجد خلفاء فيهم هذه المزايا إلا على المذهب الحق؟ وهل يمكن تفسير الأئمة الاثني عشر إلا بأئمتنا (عليهم السلام)؟ وهل تحققت عزة الإسلام وأهدافه في خلافة يزيد بن معاوية وأمثاله؟

لقد اعترف بعض المحققين من علماء العامة (بأن بشارة النبي (صلى الله عليه وآله) لا تقبل الانطباق إلا على الأئمة الاثني عشر (عليهم السلام)، ففي ينابيع المودة للقندوزي: (قال بعض المحققين: إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده (صلى الله عليه وآله) اثني عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة، فبشرح الزمان وتعريف الكون والمكان، علم أن مراد رسول الله (صلى الله عليه وآله) من حديثه هذا الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته وعترته، إذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه، لقلتهم عن اثني عشر، ولا يمكن أن يحمل على الملوك الأموية لزيادتهم على اثني عشر، ولظلمهم الفاحش... ولا يمكن أن يحمل على الملوك العباسية لزيادتهم على العدد المذكور ولقلة رعايتهم الآية ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[1]، فلابد من أن يحمل هذا الحديث على الأئمة الاثني عشر من أهل بيته وعترته (صلى الله عليه وآله) لأنهم كانوا أعلم أهل زمانهم وأجلهم وأورعهم وأتقاهم وأعلاهم نسباً، وأفضلهم حسباً، وأكرمهم عند الله، وكان علمهم عن آبائهم متصلاً بجدهم (صلى الله عليه وآله) وبالوراثة اللدنية، كذا عرفهم أهل العلم والتحقيق، وأهل الكشف والتوفيق. ويؤيد هذا المعنى أي أن مراد النبي (صلى الله عليه وآله) الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته ويشهد له ويرجحه حديث الثقلين، والأحاديث المتكثرة المذكورة في هذا الكتاب وغيرها)[2].

ثم قال[3]: عن السدي في تفسيره وهو من علماء الجمهور وثقاتهم: (لما كرهت سارة مكان هاجر أوحى الله تعالى إلى إبراهيم: أن انطلق بإسماعيل وأمه حتىّ تنزله بيت النبي التهامي، فأني ناشر ذريتك وجاعلهم ثقلاً على من كفر، وجاعل من ذريته اثني عشر عظيماً)[4].

١- سورة الشورى: ٢٣.

٢- ينابيع المودة: ج٣ ص٢٩٢.

٣- الشيخ وحيد الخراساني

٤- كشف الغطاء: ص٧.

وهو موافق لما في التوراة الفعلية في سفر التكوين، الإصحاح السابع عشر:

١٨: وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ للهِ: لَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَعِيشُ أَمَامَكَ.

١٩: فقَالَ اللهُ: بَلْ سَارَةُ امْرَأَتُكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأُقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ.

٢٠: وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. اثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً.

وبهذا وبغيره تعرف أن قضية الأنبياء والأوصياء والحجج كالسلسلة المترابطة الحلقات من لدن آدم إلى يوم القيامة وأنها من تخطيط المولى عز وجل الحكيم فعزّ شأنُه وجلّ جلالُه.

نصوص في إمامة أهل البيت عليهم السلام للأمة ومرجعيتهم لها:

١- حديث الثقلين:

عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: (إني أوشك أن أُدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله عز وجل وعترتي. كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتىّ يردا عليَّ الحوض، فانظروني بما تخلفوني فيهما)(١).

وفي هذا الحديث أخبر النبي صلى الله عليه وآله بدنوّ موته، وفيه أن آخر وصيتي لكم في الثقلين، والثقل في اللغة متاع المسافر وحشمه وكل شيء خطير نفيس مصون له قدر(٢)، وأنه لا افتراق بين القرآن العزيز والعترة المطهرة إلى يوم القيامة، فما دام القرآن دامت العترة، وما وجد الكتاب وجد الإمام الحجة من آل بيت النبي صلى الله عليه وآله وفيه دلالة واضحة على وجود إمام حجة من العترة يصحب الزمان وهو الإمام

١- مسند أحمد: ج٣ ص١٧، والطبقات الكبرى: ج٢ ص١٩٤ وغيرهما.

٢- انظر تاج العروس، مادة ثقل وكذا لسان العرب والقاموس.

الثاني عشر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وهنا[1] أقوال في وجه تسمية القرآن والأئمة عليهم السلام بالثقلين:

منها: كون كل واحد من الكتاب والعترة معدناً للعلوم العلية والحقائق الدينية ومنبعاً للأسرار النفيسة والأحكام الإلهية. ولذا حث على التمسك بهما.

ومنها: ثقالة التمسك بهما والعمل بما يتلقى منهما ورعاية حقوقهما على الناس لأنهما يأمران بالعبودية والإخلاص لله تعالى ومخالفة الهوى والعدل والإحسان، وينهيان عن الفحشاء والمنكر وعن متابعة النفس والشيطان وعن الظلم والعدوان، ومعلوم أن تباعة الحق والإخلاص ومخالفة الهوى وترك الفحشاء أثقل الأشياء وأمرّها.

ومنها: لأن عمارة الدين بهما كما عمرت الدنيا بالإنس والجن المسميين بالثقلين في قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلاَنِ﴾.

ومنها: كون كل منهما مصوناً عن الخطأ والخطل وعن السهو والزلل وطهارتهما من الدنس والرجس، ويؤيده بعض فقرات الحديث ومناسبة المعنى اللغوي لأن الثقل هو الشيء النفيس والمصون.

ومنها: بقاء الكتاب والعترة للتمسك والاهتداء في كل زمن إلى قيام الساعة وصونهما من الضياع والزوال في جميع الأعصار إلى يوم القيامة، كما هو شأن كل مصون ثقيل ولازم كل خطير نفيس فإن الذكر نزله الله وهو له حافظ، وجعل أهل الذكر قرينه وهو لهم ناصر.

ومنها: اعتماد النبي صلى الله عليه وآله وركونه إليهما في بقاء آثاره فإن دينه باق ببقائهما لأن الكتاب معجزته الباقية، والعترة معادن أسراره فيكونان ثقلَيْه وناصرَيْه، وفي اللغة اثّاقل إلى شيء ركَنَ إليه.

١- جامع أحاديث الشيعة: ج١ ص٩٣ وما بعدها.

العترة هم الخلفاء الاثنا عشر:

ثم إن العترة أخص الأقارب، والعترة ولد الرجل وذريته وعقبه من صلبه[١]، ومن المعلوم أن أهل اللغة يستشهدون بالقرآن والسُنّة على مطالبهم، لذا استشهدوا بحديث الثقلين لصحته وشهرته وكثرة أسانيده واستفاضة روايته، وصرح بعضهم أن عترة النبي ﷺ ولد فاطمة البتول عليها السلام.

فالعترة في الحديث هم الخلفاء الاثنا عشر، لأنه ﷺ جعلهم قرناء للكتاب الكريم، وعدلاً له، فهذا يعني أن العترة هم أبواب العلم ومواضع السر ومعادن الحكمة ومواطن العصمة والطهارة، وهم علي وأولاده عليهم السلام، فبعد عدم ادعاء أحد غيرهم هذا المقام، لم يعهد لأحد من المسلمين ادعاء ذلك إلا هم عليهم السلام، وهم المقصودون بأولي الأمر، وقوله تعالى: ﴿وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وبأحاديث (من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية)، وغير ذلك من الآيات والروايات ولا يمكن أن تنطبق على جميع أقارب النبي ﷺ وذريته لأن فيهم الفاسق والجاهل كما هو معلوم.

وفي حديث زيد بن أرقم وأبي سعيد (قال رسول الله ﷺ: إنيّ تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي...)[٢] ثم ذكر كتاب الله وعترتي أهل بيتي. وبهذا اللسان بين أن عدم الضلال إنما بالتمسك بالكتاب وأهل البيت، وعليه فلا عذر البتة لمن لم تكن عقائده كعقيدة العترة الطاهرة، ولِمَن لم يأخذ عنهم ويرجع إليهم في الفقه؛ فإنه سيكون في مهب رياح الضلال وأهواء الرجال.

٢. حديث السفينة:

فإنه ﷺ قال: (مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق)[٣].

وفي هذا الحديث تشبيه لأهل البيت عليهم السلام بسفينة نوح، والركوب في سفينة أهل البيت تعبير كنائي عن التمسك بهم، والتولي لهم والائتمام بهم، وأنه لا نجاة أبداً

١- انظر لسان العرب: ج٤ ص٥٣٨. وتاج العروس: ج٧ ص١٨٦ وغيرهما من كلمات اللغويين.

٢- سنن الترمذي: ج٥ ص٦٦٣ غيره من كتب المسلمين.

٣- المستدرك على الصحيحين: ج٢ ص ٣٧٣ وغيره كثير من كتب المسلمين.

إلا بذلك، فكما أن الجبل لم يعصم ابن نوح من الغرق كذلك لا نجاة ولا عصمة في العقيدة والعمل إلا بأهل البيت عليهم السلام. فهل هناك أوضح وأجلى من ذلك؟ وماذا يقول النبي صلى الله عليه وآله بعد ما قال حتّى تهتدي الأمة بنور أهل البيت عليهم السلام؟ فلقد شبَّهَ علياً بهارون، وأهل البيت بسفينة نوح وسيأتي تشبيههم بالنجوم وبباب حِطّة.

٣. حديث النجوم:

فإنه صلى الله عليه وآله قال: (النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف)[١].

قال سبحانه: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[٢] قال ابن عباس: (سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عنه فقال: الجدي علامة قبلتكم وبه تهتدون في برِّكُم وبَحرِكُم[٣]، فبالنجوم يُعرف الطريق ويُستدل على الصراط، وبأهل البيت يُعرف الحق ويُميز الباطل، لذلك استوحى حفيد الرسول صلى الله عليه وآله الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام من الآية ومن حديث النجوم معنى حديثه حين قال: (نحن العلامات والنجم رسول الله صلى الله عليه وآله)[٤].

٤. حديث باب حِطّة:

فعنه صلى الله عليه وآله: (... وإنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل من دخله غفر له)[٥].

قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[٦] فبعد تَيه بني إسرائيل في الأرض أُمروا أن يدخلوا بيت المَقدس من باب أُمروا بالدخول منه،

١- المستدرك على الصحيحين: ج٣ ص١٦٢ وغير كثير من كتب المسلمين.

٢- سورة النحل: ١٦.

٣- مجمع البيان: ج٦ ص١٤٤.

٤- نفس المصدر: ج٦ ص١٤٤.

٥- المعجم الصغير: ج١ ص٢٢؛ وانظر السيرة الحلبية: ج٢ ص١٩٣ ح٢؛ وينابيع المودة: ج١ ص٩٣؛ ومجمع الزوائد: ج٩ ص١٦٨؛ وكنز العمال: ج١٢ ص٩٨ وغيرها.

٦- سورة البقرة: ٥٨.

قيل أنه الباب الثامن من أبواب بيت المقدس المسمى بباب حِطّة، وأُمروا أن يقولوا حِطّة، أي حطّ عنا ذنوبنا، وهو أمر بالاستغفار عند الدخول ركعاً أو ساجدين، وهذا الدخول وهذا الاستغفار سبب للمغفرة والمزيد، لكن الذين ظلموا من بني إسرائيل استهزؤوا بهذا الأمر الإلهي وهذه الدعوة للمغفرة وقالوا (حنطة) قال سبحانه: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾[1].

فالنبي ﷺ شبّهَ التمسك بأهل البيت والاقتداء بهم والتولي لهم والمودّة لهم بدخول باب حِطّة والاستغفار في أمة موسى عليه السلام، لكن الذين ظلموا استخفوا وظلموا وفسقوا عن أمر ربهم فصاروا منزلاً للرجس وهكذا مَن كان مثلهم في هذه الأمة.

ولقد أراد البعض صرف هذه الأحاديث إلى غير معناها الواضح وهو الولاية والإمامة إلى المودّة فقط، وقال (وجه التشبيه أنه تعالى جعل دخول ذلك الباب والذي هو باب أريحا أو باب بيت المقدس مع التواضع والاستغفار سبباً للمغفرة وجعل لهذه الأمة مودّة أهل البيت سبباً للمغفرة)[2].

كما فعل غيره في حديث (من كنت مولاه فهذا علي مولاه)، لكن لو يسأل أي عربي أو من له أدنى معرفة بلغة العرب أنه هل كان يقصد الرسول ﷺ المحبة لهم فقط؟ لأجاب بالنفي، لأنه ﷺ جعلهم عِدل القرآن، وسفينة النجاة، وأماناً من الاختلاف، وباب المغفرة الإلهية لهذه الأمة، فهل من مُدّكر؟!!

فتلخص عندنا أن العترة هم اثنا عشر، وهم أئمة الهدى، والحجج على أهل الدنيا، أوجب تعالى طاعتهم وتولّيهم، وأنه لا سبيل له إلا من بابهم، وقد وردت روايات أكثر من أن تحصى في أسمائهم وأوصافهم، اكتفي براوية واحدة عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: (حدثني أبي العبد الصالح موسى بن جعفر قال: حدثني أبي جعفر الصادق قال: حدثني أبي باقر علم الأنبياء محمّد بن علي قال: حدثني أبي سيد العابدين علي بن الحسين قال: حدثني أبي سيد الشهداء

١- سورة البقرة: ٥٩.

٢- ينابيع المودة: ج١ ص٩٣.

الحسين بن علي قال: حدثني أبي سيد الأوصياء علي بن أبي طالب صلوات الله عليه أنه قال: قال أخي رسول الله ﷺ: مَن أحبَّ أن يلقى الله عز وجل وهو مُقبل عليه غير مُعرض فليتولّك، ومَن سرّهُ أن يلقى الله عز وجل وهو راضٍ عنه فليتولّ ابنك الحسن، ومَن أحبّ أن يلقى الله عز وجل ولا خوف عليه فليتولّ ابنك الحسين، ومَن أحبّ أن يلقى الله وقد تمحص من ذنوبه فليتولّ علي بن الحسين فإنه كما قال الله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، ومَن أحبّ أن يلقى الله عز وجل وهو قرير العين فليتولّ محمّد بن علي، ومَن أحبّ أن يلقى الله فيعطيه كتابه بيمينه فليتولّ جعفر بن محمّد الصادق، ومَن أحبّ أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتولّ موسى بن جعفر الكاظم، ومَن أحبّ أن يلقى الله وهو ضاحك فليتولّ علي بن موسى الرضا، ومَن أحبّ أن يلقى الله وقد رفعت درجاته وبدلت سيئاته حسنات فليتولّ محمداً، ومَن أحبّ أن يلقى الله عز وجل فيحاسبه حساباً يسيراً ويدخله جنة عرضها السموات والأرض أُعِدّت للمتقين فليتولّ ابنه علياً، ومَن أحبّ أن يلقى الله عز وجل وهو من الفائزين فليتولّ ابنه الحسن العسكري، ومَن أحبّ أن يلقى الله عز وجل وقد كمل إيمانه وحسن إسلامه فليتولّ ابنه المنتظر محمداً صاحب الزمان المهديّ، فهؤلاء مصابيح الدجى وأئمة الهدى وأعلام التقى فمَن أحبّهم وتولّاهم كنتُ ضامناً له على الله الجنة)[1].

قوله عليه السلام:

(فإذا كان ذلك يا بني فالزم بيتك)

هنا أمرَ أمير المؤمنين عليه السلام الإمامَ الحسن عليه السلام بلزوم البيت عندما يحصل أمر ما أشار إليه بقوله (ذلك) ذكر الشيخ البهائي العاملي أعلى الله مقامه في شرح قوله (ذلك) إنه إشارة إلى حلول أجل أمير المؤمنين عليه السلام[2].

١- جامع أحاديث الشيعة: ج١ ص٥٩ عن كتاب الأربعين في مناقب أمير المؤمنين لمحمّد بن مسلم ابن أبي الفوارس الرازي.

٢- الاربعون حديثا: ص٣٠٥.

بيد أنه يحتمل قوياً أنه أراد بذلك أمراً معهوداً ومعلوماً لديهما عليهما السلام هذا الأمر هو غصب الخلافة من الإمام الحسن عليه السلام، لأن الإمام الحسن عليه السلام بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام لم يلزم البيت، بل تصدى للخلافة بعد مبايعة المسلمين له في الكوفة، ويؤيده ما جاء عن النبي صلى الله عليه وآله من الأمر لأمير المؤمنين عليه السلام بلزوم البيت فعن أبي الحسن الكاظم قال: سألت أبي فقلت له ما كان بعد إفاقته صلى الله عليه وآله: قال: دخلتْ عليه النساء يبكين، وارتفعت الأصوات وضجّ الناس بالباب المهاجرون والأنصار، قال علي عليه السلام: فبينا أنا كذلك إذا نودي أين علي؟ فأقبلت حتّى دخلت إليه فانكببت عليه، فقال لي: يا أخي فهّمك الله وسدّدك، ووفّقك وأرشدك، وأعانك وغفر ذنبك، ورفع ذكرك، ثم قال: يا أخي إن القوم سيشغلهم عني ما يريدون من عرض الدنيا وهم عليه قادرون، فلا يشغلك عني ما شغلهم، فإنما مثلك في الأمة مثل الكعبة نصبها الله علماً، وإنما تؤتى من كل فج عميق، وناد سحيق، وإنما أنت العلم علم الهدى، ونور الوحي، وهو نور الله، يا أخي والذي بعثني بالحق لقد قدمت إليهم بالوعيد، ولقد أخبرت رجلاً رجلاً بما افترض الله عليهم من حقك، وألزمهم من طاعتك فكل أجاب إليك وسلم الأمر إليك، وإني لأعرف خلاف قولهم، فإذا قبضت، وفرغت من جميع ما وصيتك به، وغيبتني في قبري فالزم بيتك، واجمع القرآن على تأليفه، والفرائض والأحكام على تنزيله، ثم امض ذلك على عزائمه وعلى ما أمرتك به، وعليك بالصبر على ما ينزل بك منهم حتّى تقدم عليّ)[1].

وعليه فالإمام علي عليه السلام إنما أمر ولده بلزوم البيت بعد غصب الخلافة هذا الأمر المعهود، فأوصى ولده بنظير ما أوصاه رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ما حدث من أمر السقيفة، أما إذا فرض أنه لم يحدث ذلك فلابد للإمام من القيام بوظيفته، وقيادة الأمة وولاية الأمر، أما لو اختارت الأمة ما لم يختره الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وآله لها فليس أمام العترة إلا الصبر أو القتال لو كان هناك أنصار كما فعل سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام.

١- خصائص الأئمة: ص٧٣.

ثم إن اعتزال الناس في حد نفسه مما كثر ذكره في الآثار الشريفة لأنه أسكن للفؤاد وأغض للبصر وأنزه للأذن وأحفظ للسان والفرج، فلزوم البيت مما يساعد على التقوى وفيه راحة للمتعبدين بل هو عبادة فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: (العزلة عبادة)[١].

وعن الصادق عليه السلام: (إن قدرت أن لا تخرج من بيتك فافعل، فإن عليك في خروجك أن لا تغتاب، ولا تكذب، ولا تحسد، ولا ترائي، ولا تتصنع، ولا تداهن، صومعة المسلم بيته يحبس فيه نفسه وبصره ولسانه وفرجه)[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (يأتي على الناس زمان تكون العافية فيه عشرة أجزاء، تسعة منها في اعتزال الناس، وواحدة في الصمت)[٣].

والذي يظهر من روايات أخرى أن الاحتجاب عن الناس هو ما كان عن أهل الدنيا الغافلين عن الآخرة، وإذا لم يكن في المعاشرة لهم مصلحة دينية أو اجتماعية.

فعن النبي ﷺ أنه قال لرجل أراد الجبل ليتعبد به: (لصبر أحدكم ساعة على ما يكره في بعض مواطن الإسلام خيرٌ من عبادته خالياً أربعين سنة)[٤].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام في وصيته لهشام بن الحكم: (يا هشام الصبر على الوحدة علامة قوة العقل، فمَن عقل عن الله تعالى اعتزل أهل الدنيا الراغبين فيها، ورغب فيما عند ربه، وكان الله أُنسه في الوحشة وصاحبه في الوحدة)[٥].

وروي أن داود خرج مصحراً منفرداً، فأوحى الله: (يا داود مالي أراك وحدانياً؟ فقال: إلهي اشتد الشوق مني إلى لقائك، وحال بيني وبينك خلقك، فأوحى الله إليه: ارجع إليهم، فإنك إن تأتيني بعبد آبق أثبتك في اللوح حميداً)[٦].

١- منتخب ميزان الحكمة: ص٢٧٦.

٢- مستدرك سفينة البحار: ج٧ ص٢٠٤

٣- مستدرك الوسائل: ج١١ ص٣٨٨.

٤- منتخب ميزان الحكمة: ص٢٧٦.

٥- تحف العقول: ص٣٨٧.

٦- مستدرك سفينة البحار: ج٧ ص٢٠٥.

قوله عليه السلام:

(وَٱبكِ على خطيئتك)

البكاء معروف، وقد يمد فيقال بكاء، ويقصر فيقال بُكا، قال الجوهري: (البكاء يمد ويقصر فإذا مددت أردت الصوت الذي يكون مع البكاء، وإذا قصرت أردت الدموع وخروجها)[1].

والبكاء يكون للحزن وللشوق وللخوف وربما للسرور، وهو غير مناف للصبر والرضا بالقضاء لصدوره من الأنبياء و الحجج عليهم السلام، وإنما هو طبيعة بشرية وجبلّة إنسانية ورحمة فلا حرج من إبرازها وإظهارها.

والخطيئة: الذنب والإثم قال سبحانه: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيرًا﴾[2]، أي ذنباً وإثماً كبيراً[3]، والذنب والإثم يبعد العبد عن ساحة القرب للمولى عز شأنه، ومُخرِجٌ له عن زي العبودية، لذا ندب الشرع إلى البكاء لما به من دلالات وآثار عظيمة في تصحيح العلاقة بين الرب الودود والعبد الباكي الحزين والنادم على ما اقترفه في حضرة المولى عز وجل، وإليك بعض الأحاديث في هذا المجال:

فمن جملة وصايا للنبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام والتي رواها الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: (والرابعة كثرة البكاء من خشية الله عز وجل يُبنى لك بكل دمعة بيت في الجنة)[4].

وعنه صلى الله عليه وآله أنه قال: (طوبى لصورة نظر الله إليها تبكي من خشية الله عز وجل لم يطلع إلى ذلك الذنب غيره)[5].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (مِن كَرَمِ المرء بكاؤه على ما مضى من زمانه)[6].

١- نقله في روض الجنان: ص٣٣٣.

٢- سورة الإسراء: ٣١.

٣- تفسير الصافي: ج٣ ص١٩٠؛ ومجمع البيان: ج٦ ص٣٤٨.

٤- من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص١٨٩.

٥- ثواب الأعمال: ص١٦٧.

٦- شرح النهج: ج٢٠ ص٢٧٢.

وعن الباقر عليه السلام قال: (كل عين باكية يوم القيامة غير ثلاث، عين سهرت في سبيل الله وعين فاضت من خشية الله وعين غضّت عن محارم الله)[١].

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: (ما من شيء إلا وله كَيْل أو وزن إلا الدموع، فإن القطرة منها تطفئ بحاراً من نار وإذا اغرورقت العين بمائها لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة، فإذا فاضت حرّمه الله على النار، ولو أن باكياً بكى في أمة لرحموا)[٢].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال لأبي بصير: (إذا خفت أمراً يكون أو حاجة تريدها فابدأ بالله فمجّده، واثنِ عليه كما هو أهله، وصلّ على النبي صلى الله عليه وآله وتباكَ ولو مثل رأس الذباب، إن أبي كان يقول: أقرب ما يكون العبد من الرب وهو ساجد يبكي)[٣].

وعنه صلى الله عليه وآله: (إن لم يجئك البكاء فتباكَ، فإن خرج مثل الذباب فبخ بخ)[٤].

بعد هذا فلا ينبغي لكل مؤمن أن يتهاون في مسألة البكاء على الذنب من خشية الله سبحانه، ولابد أن تكون له جلسات وفترات لتحقيق هذا المعنى، لأنه لا طريق لمثلنا من الخطّائين والمذنبين إلا في الرجوع إليه سبحانه نادمين باكين ليخرجنا برحمته وفضله من زمرة الآبقين إلى ثلل التوابين برحمته وهو أرحم الراحمين.

بقي شيء:

قد يقال إن قوله عليه السلام: (وابكِ على خطيئتك) لولده الإمام الحسن عليه السلام لا يناسب ما تعتقد به الشيعة الإمامية من عصمة أهل البيت عليهم السلام فالمعصوم لا تصدر عنه الخطيئة؟

وهذا الإشكال ينم عن عدم معرفة بمراتب البشر ولا بمراتب الطاعة والعبودية ويكشف عن نظرة سطحية لا تفرق بين النبي والوصي والولي، وبقية الناس، وربما يستفيد المستشكل تبريراً لمن يوالهم ويأتمّ بهم من الذين صدرت منهم الخطيئة قبل

١- الكافي: ج٢ ص٨٠.

٢- بحار الأنوار: ج٩ ص ٣٣١.

٣- نفس المصدر.

٤- نفس المصدر.

الإسلام وبعده، لذلك يتشبث بما هو أوهن من بيت العنكبوت للتشكيك بعقيدة العصمة، بل ولا يؤول بعض الآيات التي تدل بظاهرها على صدور المعصية من بعض الأنبياء عليهم السلام ويأخذ بظاهرها مع أن العقل والنقل يدفعان ذلك وقد عرفته، وإليك ما يعضده من مفسر وعالم سني وهو الرازي فإنه قال في تفسير الآية الكريمة: ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ إن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومَن أمرَ الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لابد أن يكون معصوماً عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوماً من الخطأ لكان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمرا بفعل ذلك الخطأ، والخطأ لكونه خطأ منهي عنه، فهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وإنه محال، فثبت أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم ، وثبت أن كل مَن أمرَ الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوما عن الخطأ ، فثبت قطعا أن أولي الأمر المذكور في هذه الآية لا بد وأن يكون معصوما)[1].

ثم إن هذا الإشكال قد أجيب بأجوبة وأجوبة من أفضلها ما أفاده الفاضل الجليل علي بن عيسى الإربلي قدس سره في كتاب كشف الغمة، حيث قال: ان الأنبياء والأئمة عليهم السلام تكون أوقاتهم مستغرقة بذكر الله تعالى، وقلوبهم مشغولة به، وخواطرهم متعلقة بالملأ الأعلى، وهم أبداً في المراقبة كما قال عليه السلام: (اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تره فإنه يراك) فهم أبداً متوجهون إليه، منقلبون بكليتهم عليه فمتى انحطوا عن تلك المرتبة العالية والمنزلة الرفيعة إلى الاشتغال بالمأكل والمشرب والتفرغ للنكاح وغيره من المباحات عدوه ذنباً واعتقدوه خطيئة فاستغفروا منه.

ألا ترى أن بعض عبيد الدنيا لو قعد يأكل ويشرب وينكح وهو يعلم أنه بمرأى من سيده ومسمع لكان ملوماً عند الناس ومقصراً فيما يجب عليه من خدمة سيده ومالكه، فما ظنك بسيد السادات ومالك الأملاك، وإلى هذا أشار صلى الله عليه وآله بقوله: (إنه لَيُران على قلبي وإني لأستغفر بالنهار سبعين مرة) وبقوله: (حسنات الأبرار

١- التفسير الكبير ، للفخر الرازي: ج١٠ ص١٤٤.

سيئات المقربين)[1].

بتوضيح وتقريب:

إن نفوس الأنبياء والأولياء نفوس كبيرة قد استولت عليها المعرفة بالحق تعالى فصارت مستغرقة في طلب رضاه، وتحقيق العبودية المطلقة له، ذائبة في حبه، وليست هي كنفوس العوام التي أخلدت إلى الأرض، وركنت للدنيا وملاذها، ولما كانت نفوس الأنبياء والأولياء كذلك، صار عندها الأكل والشرب ومعاشرة النساء وترك الأَوْلى في القول والفعل معصية، وابتعاد عن ساحة القداسة، وخروج عن الاندكاك في إرادة المولى سبحانه، لذلك يستغفرون ويبكون، فالنبي عندما يُران على قلبه أو يُغان كما في الحديث المعروف -أي يتغشى قلبه ما يلبسه ويبعده عما استغرق فيه من الذكر والفكر- فإنه يستغفر الله سبعين مرة مع أن الرَّيْن والغَين ليس بذنب على موازين الفقه وفي حسابات العامة.

ويشهد له القول المشهور (حسنات الأبرار سيئات المقربين)، فربما يُعدّ العمل حسنة للبار لكن لو جاء به المُقرَّب لعُدَّ سيئة، ولأوضّح بمثال: لو أن فقيراً مضطراً جاء لإنسان من أهل الكفاف يسأله فأعطاه ديناراً لعُدَّ ذلك حسنة، لكن لو جاء ذلك السائل وسأل متمولاً يملك المليارات فأعطاه ديناراً لعد ذلك سيئة، لأنه لابد أن تكون العطية على قدر ما يملك المُعطي، وهكذا العمل بالنسبة للبار والمقرب فتأمل لتفهم.

قوله عليه السلام:

(ولا تكن الدنيا أكبر همّك)

وهنا لابد من الكلام في أمور ثلاثة: سبب تسمية الدنيا، والموازنة بين الدنيا والآخرة، والدنيا الممدوحة والدنيا المذمومة.

١- هذا ملخص كلامه كما نقله الشيخ البهائي في الاربعون حديثا: ص٣١٣، انظر كشف الغمة: ج٣ص٤٧.

أما سبب التسمية:

فلقد جاء أن يزيد بن سلام سأل النبي ﷺ عن الدنيا لم سُمّيت الدنيا؟ قال: (لأن الدنيا دنية خلقت من دون الآخرة، ولو خلقت مع الآخرة لم يُفْنَ أهلها كما لا يُفنى أهل الآخرة، قال: فأخبرني لم سُمّيت الآخرة آخرة؟ قال: لأنها متأخرة تجيء من بعد الدنيا، لا توصف سنينها ولا تحصى أيامها، ولا يموت سكانها)[١].

وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام: إنه سأله يهودي عن مسائل فكان فيما سأله: (لِمَ سُمّيت الدنيا دنيا؟ ولِمَ سُمّيت الآخرة آخرة؟ فقال عليه السلام: إنما سُمّيت الدنيا دنيا لأنها أدنى من كل شيء، وسُمّيت الآخرة آخرة لأن فيها الجزاء والثواب)[٢].

فتكون الدنيا على الخبر الأول أنها أدْوَنُ مرتبة من الآخرة بل هي خسيسة ورذيلة بالنسبة لعظيم منزلة الآخرة وشرفها.

وعلى الخبر الثاني أنها أقرب من الآخرة إما بحسب المكان أو بحسب الزمان، وأما الآخرة فلأن الجزاء فيها وهو متأخر فسُمّيت آخرة.

أما الموازنة بين الدنيا:

فالعاقل لابد له من تقدير عيشه في الدنيا، وحياته في الآخرة فإن طال العمر في هذه الدنيا فلا يتجاوز السبعين سنة أو الثمانين إلا لقلة من الناس كما هو الواقع، أما في الآخرة فبقاء متمادٍ ومتطاول خارج عن أقيسة الزمان والمكان وفوق هذا إما في نعيم، وإما في جحيم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[٣]، وعليه فلا مناص من اختيار الآخرة الخالدة على الدنيا الزائلة الفانية لمن له أدنى عقل قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾[٤]، أي يستمتع بها في أيام قليلة، ثم تنقطع وتزول، وأما الآخرة فهي دار القرار والبقاء والدوام، قال بعض الحكماء: (لو كانت الدنيا ذهباً فانياً، والآخرة خزفاً باقياً، لكانت الآخرة خيراً من الدنيا، فكيف والدنيا خزف فان، والآخرة ذهب باق).

١- بحار الأنوار: ج٥٤ ص٣٥٥.

٢- نفس المصدر.

٣- سورة الانفطار: ١٣-١٤.

٤- سورة غافر: ٣٩.

فإذا حصلت هذه الموازنة في عقل ونفس الإنسان ووصل إلى النتيجة فستكون الآخرة أكبر همّه، وموضع شغله، وهذا لا يعني ترك حظه من الدنيا مما أحلّ الله سبحانه وتعالى.

فمن مواعظ الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: (اجتهدوا في أن يكون زمانكم أربع ساعات: ساعة لمناجاة الله، وساعة لأمر المعاش، وساعة لمعاشرة الإخوان والثقاة الذين يعرّفونكم عيوبكم ويخلصون لكم في الباطن، وساعة تخلون فيها للذّاتكم في غير محرم، وبهذه الساعة تقدرون على الثلاث ساعات، لا تحدّثوا أنفسكم بفقر ولا بطول عمر فإنه من حدّث نفسه بالفقر بخل، ومن حدّثها بطول العمر يحرص، اجعلوا لأنفسكم حظاً من الدنيا بإعطائها ما تشتهي من الحلال، وما لا يثلم المروءة وما لا سرف فيه، واستعينوا بذلك على أمور الدين، فإنه روي "ليس منا مَن ترك دنياه لدينه، أو ترك دينه لدنياه")[١].

روي أنه آخى النبي صلى الله عليه وآله بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً فقال: كُلْ فأني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن، قال: فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً، فاعطِ كل ذي حق حقه، فأتى النبي صلى الله عليه وآله فذكر ذلك له فقال صلى الله عليه وآله: صدق سلمان[٢].

الدنيا المذمومة والدنيا الممدوحة:

لقد ورد في الآيات والروايات ذمٌّ للدنيا من قبيل قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾[٣].

١- تحف العقول: ص٤١٠.

٢- كتاب البخاري: ج٧ ص١٠٥.

٣- سورة الحديد:

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: (حُبّ الدنيا رأس كل خطيئة)[١].

وورد مدح لها فعن الصادق عليه السلام أنه قال: (نعم العون على الآخرة الدنيا)[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال لرجل سمعه يذم الدنيا: (الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، مسجد أولياء الله، ومهبط وحيه، وفصل ملائكته، ومتجر أوليائه، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة، فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها، ونادت بفراقها، ونعت نفسها...)[٣].

وفي الحديث (أنه إذا قال العبد: لعن الله الدنيا، قالت الدنيا: لعن الله أعصانا لربه)[٤].

فعلى هذا لا تكون الدنيا مذمومة مطلقاً، ولا ممدوحة مطلقاً فهي تذم وتمدح بحسب عمل المرء فيها، فكل ما يقربه إلى ربه عز وجل فهو من الدنيا الممدوحة وإن كان ذلك أموال وأولاد ورياسات ووزارات ونساء وغير ذلك.

وكل ما يبعد العبد عن مولاه والدار الآخرة فهو من الدنيا المذمومة كالعلم للزعامة، والعبادة للرياء، والأموال للتكاثر ونيل الشهوات المحرمة، والوظائف للظلم والتوثب على المال العام بل والمباحات الزائدة عن الحاجة.

قال رجل لأبي عبد الله عليه السلام: (والله إنا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها فقال: تحب أن تصنع بها ماذا؟ قال: أعود بها على نفسي وعيالي وأصل بها، وأتصدق بها وأحج وأعتمر، فقال عليه السلام: ليس هذا طلب الدنيا هذا طلب الآخرة)[٥].

فهذا الرجل كأنما قال للإمام عليه السلام إنا نسمع أن الدنيا مذمومة، وحبها مبغوض، لكنا نحب أن نُعطى الأموال والأولاد وحظوظ الدنيا، فسأله الإمام عليه السلام لِمَ تريد ذلك؟ فأجابه بما عرفت، فقوّمَ الإمام عليه السلام فهمه بأن هذا ليس من طلب الدنيا المذموم لأنك تريد التوسعة على نفسك، وعيالك والعيادة وصلة الأرحام والصدقة وهذه الأمور إنما توصل لرضا الله سبحانه والجنة بل هو من الدنيا الممدوحة.

١- الخصال: ص٢٥.

٢- الكافي: ج٥ ص٧٢

٣- الإرشاد: ج١ ص٢٩٦.

٤- وسائل الشيعة: ج٧ ص٥٠٩.

٥- الكافي: ج٥ ص٧٢.

قال الإمام السجاد عليه السلام في الدعاء: (وعمّرني ما كان عمري بذلة في طاعتك، فإذا كان مرتعاً للشيطان فاقبضني إليك قبل أن يسبق مقتك إليّ، أو يستحكم غضبك عليّ)[٦].

قوله عليه السلام:

(وأوصيك يا بني بالصلاة عند وقتها)

في هذه الجملة تعدّدَ مطلوب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقد أوصى بأصل الصلاة، وأن تكون في وقتها المكتوب.

والناس مع الصلاة على ثلاثة أقسام: منهم مَن لا يصلي وهذا لا كلام لنا معه لأنه خارج عن حدود الإنسانية، ومنهم مَن يصلي ولكن لا يحسن صلاته، ومنهم مَن يقيم الصلاة ويحسن أداءها.

الصلاة من أهم شعائر الإسلام العزيز، لما تمثله من التعبد للمولى عز وجل ولما تتركه في نفس المصلي من طهارة ونقاء بشرط أن يكون الإتيان بها على نحو الإقامة فإنك لا تكاد تجد ذكراً لها في كتاب الله عز وجل إلا بلفظة الإقامة أو ما اشتق منه قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٧].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾[٨].

وقال عز شأنه: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾[٩].

وهذا يعني أن إرادته سبحانه تعلقت بإقامة الصلاة بحدودها أركاناً وواجبات وسنناً، لا بالصلاة كيفما كانت.

٦- الصحيفة السجادية: ص١٠١.

٧- سورة البقرة: ٣.

٨- سورة الأعراف: ١٧٠.

٩- سورة النور: ٣٧.

إن الصلاة التي تؤدي دورها، ويجني منها المصلي ما يترتب عليها، والتي تُقبل هي الصلاة المقامة لا المؤداة بأي كيفية وعلي أيّ نحو، بل قد تكون الصلاة مع الاستخفاف وعدم الإحسان سبباً للبُعد عن المولى عز وجل، فبدل أن تكون مُقرباً تصير مُبعداً.

فعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: (بينا رسول الله صلى الله عليه وآله في المسجد إذ دخل رجل فقام يصلي فلم يتم ركوعه ولا سجوده، فقال صلى الله عليه وآله: نقر كنقر الغراب، لئن مات هذا وهكذا صلاته ليموتنّ على غير ديني)[1].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: (والله إنه ليأتي على الرجل خمسون سنة وما قَبِل الله منه صلاة واحدة، فأيّ شيء أشدّ من هذا؟ والله إنكم لتعرفون من جيرانكم وأصحابكم مَن لو كان يصلي لبعضكم ما قَبِلَها منه لاستخفافه بها، إن الله عز وجل لا يقبل إلّا الحسن فيكف يقبل ما يستخف به)[2].

إن هذا الحديث يحتاج لوقفة: فالإمام عليه السلام يمثل ويقول لو أن صلاة البعض كانت موجهة لبعض الناس لما كانت مقبولة لديه لأنها بلا جسد ولا روح، فهي لقلقة وقيام وقعود تنم عن سوء أدب واستخفاف فكيف بجبار السموات والأرض الذي لا يقبل إلا الحسن من العبادة، والطيب من الطاعة.

فعُرفاً لكل سلطان أدب في التعامل وطريقة للاحترام، ولياقة في الصلة، وإلّا كان المتعامل غير جدير بالخدمة لجهله بمكانة سيده، فكيف برب الأرباب وسيد السادات الذي لا يوصف عظمةً وجبروتاً وقدرة وشأناً.. فالمصلي إنما يقف بين يديه تعالى ويستقبله ويذكره ذلك الذكر الذي يستدعي ذكر المولى تعالى له.

فعن زين العابدين عليه السلام: (المصلي ما دام في صلاته فهو واقف بين يدي الله عز وجل)[3].

وعن الباقر عليه السلام: (إذا استقبل [المصلي] القبلة استقبل الرحمن بوجهه لا إله

١- الكافي: ج٣ ص٢٦٨.

٢- الكافي: ج٣ ص٢٦٩.

٣- من لا يحضره الفقيه: ج١ ص١٩٩.

غيره)[١].

وعنه عليه السلام في قوله تعالى ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: (ذكرُ الله لأهل الصلاة أكبرُ من ذكرِهِم إياه، ألا ترى أنه يقول: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾)[٢].

فالمصلي وإن كان في هذا العالم المادي المحدود والداني لكنه يلج بصلاته في عوالم الملكوت، ويتوجه في الحقيقة إلى حضرة القدس ويكون بين يديه قدست أسماؤه، وهذا يدعو المصلي لأن يكون في غاية الأدب، والخضوع والتوجه، ولابد أن تكون خدمته تعالى في الصلاة مناسبة لشأنه جلّ شأنه وبما أنه لا يعرف ما هو إلا هو لابد من أخذ الصلاة عن أنبيائه وحججه المجعولين من قبله تعالى لأنهم الأعرف بمولاهم والأكمل في عبوديتهم له سلام الله عليهم، وإليك أنموذجاً من صلاتهم عليهم السلام لنقتفي آثارهم ونلتحق بقوافلهم:

عن حماد بن عيسى قال: (قال لي أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يوماً: يا حماد أتحسن أن تصلي؟

قال: فقلت: يا سيدي أنا أحفظ كتاب حَريز في الصلاة.

فقال: لا عليك يا حماد قم فصلّ.

قال: فقمت بين يديه متوجهاً إلى القبلة فاستفتحت الصلاة، فركعت وسجدت.

فقال عليه السلام: يا حماد لا تحسن أن تصلي، ما أقبح بالرجل منكم يأتي عليه ستون سنة أو سبعون سنة فلا يقيم صلاة واحدة بحدودها تامة.

قال حماد: فأصابني في نفسي الذلّ.

فقلت: جعلت فداك فعلمني الصلاة.

فقام أبو عبد الله عليه السلام مستقبل القبلة منتصباً، فأرسل يديه جميعاً على فخذيه قد ضم أصابعه وقرب بين قدميه حتى كان بينهما قدر ثلاثة أصابع منفرجات، واستقبل بأصابع رجليه القبلة لم يحرفهما عن القبلة، فقال بخشوع "الله أكبر" ثم

١- المحاسن: ج١ص١٢٢.

٢- البحار: ج٨٣ ص١٦٣.

قرأ "الحمد" بترتيل و"قل هو الله أحد" ثم صبر هنيئة بقدر ما يتنفس وهو قائم، ثم رفع يديه حيال وجهه وقال "اللهُ أكبر" وهو قائم ثم ركع، وملأ كفيه من ركبتيه منفرجات، وردّ ركبتيه إلى خلفه، ثم سوى ظهره حتى لو صُب عليه قطرة من ماء أو دهن لم تزل لاستواء ظهره، ومد عنقه وغمّض عينيه، ثم سبح ثلاثاً بترتيل فقال"سبحان ربي العظيم وبحمده" ثم استوى قائماً فلما استمكن من القيام قال: "سمع الله لمن حمده" ثم كبر وهو قائم ورفع يديه حيال وجهه، ثم سجد وبسط كفيه مضمومتي الأصابع بين يدي ركبتيه حيال وجهه فقال: "سبحان ربي الأعلى وبحمده" ثلاث مرات، ولم يضع شيئاً من جسده على شيء منه، وسجد على ثمانية أعظم: الكفين، والركبتين، وأنامل إبهامي الرجلين، والجبهة، والأنف، وقال: سبعة منهن فرض يسجد عليها وهي التي ذكرها الله عز وجل في كتابه فقال: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ وهي الجبهة والكفان، والركبتان والإبهامان، ووضع الأنف على الأرض سنة، ثم رفع رأسه من السجود، فلما استوى جالساً قال: "الله أكبر" ثم قعد على فخذه الأيسر وقد وضع قدمه الأيمن على بطن قدمه الأيسر وقال: "أستغفر الله ربي وأتوب إليه" ثم كبر وهو جالس وسجد السجدة الثانية وقال كما قال في الأولى، ولم يضع شيئاً من بدنه على شيء منه في ركوع ولا سجود، وكان مجنحاً، ولم يضع ذراعيه على الأرض فصلى ركعتين على هذا ويداه مضمومتا الأصابع وهو جالس في التشهد، فلما فرغ من التشهد سلّم وقال: يا حماد هكذا صلِّ)[1].

إن الامام عليه السلام عندما قال: يا حماد هكذا صلِّ فكأنه يقول لكل مؤمن: هكذا صل، فتدبّر.

فكما أن الصلاة التامة ما كانت هيئتها حسنة وصحيحة كذلك ما كان معناها كذلك، أو قل إن الصلاة جسد وروح جسدها التكبير والقراءة والركوع والسجود، وروحها الذكر القلبي والتفكر والإقبال والخشوع والخضوع والتذلل للمولى عز وجل وإلا فستكون صورة صلاةٍ ومصلٍ لا حقيقتهما.

١ - الكافي: ج٣ ص٣١١.

فعن رسول الله ﷺ: (إن الرجلين من أمتي يقومان في الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد، وإن ما بين صلاتيهما مثل ما بين السماء والأرض)[١].

وعن الحسن بن علي عليهما السلام: (إن الرجلين يكونان في صلاة واحدة وبينهما ما مثل ما بين السماء والأرض من فضل الثواب)[٢].

وعليه فلابد للمصلي من أن يحافظ على آداب الصلاة الباطنية، بالمجاهدة والتمرين، ومنها:

١. حضور القلب مع البدن في الصلاة، فعن النبي ﷺ: (من صلى ركعتين ولم يحدّث فيهما نفسه بشيء من أمور الدنيا غفر الله له ذنوبه)[٣]. وعن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: (إنما لك من صلاتك ما أقبلت عليه منها، فان أوهمها كلها أو غفل عن أدائها لفت فضرب به وجه صاحبها)[٤]. وعن الصادق عليه السلام: (إني لأحب للرجل منكم المؤمن إذا قام في صلاة فريضة أن يُقبل بقلبه إلى الله ولا يَشغل قلبه بأمر الدنيا، فليس من مؤمن يُقبل بقلبه في صلاته إلى الله إلا أقبل الله إليه بوجهه وأقبل بقلوب المؤمنين إليه بالمحبة له بعد حب الله عز وجل أياه)[٥].

٢. الخشوع، قال عز من قائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[٦]. وعن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ الخشوع في القلب، وأن تلين كتفك للمرء المسلم، وأن لا تلتفت في صلاتك)[٧]. وأيضاً عنه عليه السلام: (إن رسول الله ﷺ أبصر رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال: إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه)[٨].

١- عوالي الآلي: ج١ ص٣٢٢.

٢- ارشاد القلوب: ص٧٨.

٣- عوالي الآلي: ج١ ص٣٢٢.

٤- الكافي: ج٣ ص٣٦٣؛ ثواب الاعمال: ص١٦٣.

٥- ثواب الأعمال: ص١٣٥.

٦- سورة المؤمنون: ١-٢.

٧- المستدرك على الصحيحين: ج٢ص٤٢٦.

٨- الجعفريات: ص٣٦.

٣. أداء الصلاة كصلاة مُوَدِّع، فعن الإمام الصادق عليه السلام: (إذا صليت فريضة فصلّها لوقتها صلاة مُوَدِّع يخاف أن لا يعود إليها أبداً، ثم انصرف ببصرك إلى موضع سجودك، فلو تعلم مَن عن يمينك وشمالك لأحسنت صلاتك، واعلم أنك قُدّام مَن يراك ولا تراه)[١].

هذا بالنسبة لأصل الصلاة، أما إقامتها في الوقت بل في أوله فمن أهم جهات الإقامة:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (مَن ترك صلاته متعمداً فقد هدم دينه، ومن ترك أوقاتها يدخل الويل، والويل وادٍ في جهنم كما قال تعالى في سورة أرأيت: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ﴾[٢])[٣].

وعن الباقر عليه السلام: (في قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٤]، هذه الفريضة من صلّاها لوقتها عارفاً بحقها لا يؤثر عليها غيرها كتب الله له براءة لا يعذبه، ومن صلّاها لغير وقتها غير عارف بحقها مؤثراً عليها غيرها كان ذلك إليه عز وجل، فإن شاء غفر له، وإن شاء عذّبه)[٥].

وعن الإمام علي عليه السلام: (شيعتنا رعاة الشمس والقمر والنجوم)[٦] أي الذين يراعون الأوقات للصلاة، والذكر، والصوم.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: (امتحنوا شيعتنا عند مواقيت الصلاة كيف محافظتهم عليها)[٧].

وعنه عليه السلام: (يُعرف من يصف الحق بثلاث خصال: ينظر إلى أصحابه من هم؟ وإلى صلاته كيف هي؟ وفي أي وقت يصليها؟)[٨].

١- ثواب الاعمال: ص٥٧.

٢- سورة الماعون: ٥.

٣- جامع الاخبار: ص١٨٥.

٤- سورة المؤمنون: ٩.

٥- دعائم الإسلام: ج١ ص١٣٥.

٦- دعائم الإسلام: ج١ص٥٦.

٧- قرب الاسناد: ص٧٨.

٨- المحاسن: ج ص٣٩٦.

وفي رسالة علي أمير المؤمنين عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر: (صلّ الصلاة لوقتها المؤقت لها، ولا تعجل وقتها لفراغ، ولا تؤخرها عن وقتها لاشتغال، واعلم أن كل شيء من عملك تبعٌ لصلاتك)[1].

ثم إن أفضل الوقت أوله لما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (أوله رضوان الله، وآخره عفو الله، والعفو لا يكون إلاّ عن ذنب)[2]، وحمل على الكراهة جمعاً بينه وبين أحاديث أخرى.

وعنه عليه السلام: (لفضل الوقت الأول على الأخير خيرٌ للرجل من ولده وماله)[3].

الخلاصة:

تبين أن الصلاة رأس الطاعات، وأفضل القربات، وأن ما عداها تبعٌ لها، وأن لها صورة ومعنى لا تغني صورتها عن معناها، ولا العكس، وأنه لابد من إقامة الصلاة في وقتها بل في أوله على النحو اللائق بشأن المولى عز وجل، وإلا فستكون من المبعدات والعياذ بالله سبحانه، وعليه لا ينبغي التهاون بها وعدم أخذ الأهبة لها، ولابد من توقيرها حتى يكون العبد لائقاً بخدمة مولاه لينال رضاه، وينجو من سخطه سبحانه وتعالى.

قوله عليه السلام:

(والزكاة في أهلها عند محلها)

الزكاة في اللغة:

قالوا في مادة زكا، الزكاء: النماء والريع، واستُشهد بحديث علي عليه السلام: (المال تنقصه النفقة والمال يزكو على الإنفاق)، أي ينمو.

والزكاة: الصلاح، ورجل تقي زكي أي زاك من قوم أتقياء أزكياء، وزكاة المال

١- نهج البلاغة الكتاب: ٢٧.

٢- الوسائل: ج٤ ص١٢٣.

٣- نفس المصدر: ص١٢٢.

معروفة وهو تطهيره، وقال بعض: إن الزكاة صفو الشيء، وأصل الزكاة في اللغة: الطهارة والنماء والبركة والمدح، وكل ذلك قد استعمل في القرآن والحديث .. [١].

الإسلام دين الإنسانية والرحمة والتعاطف والتكافل فلو انتقل الإسلام بحق من النصوص إلى النفوس لعاش الناس برفاهية وسلام، ولانحسر الجوع والعري والجهل والحاجة.

فكل حاجة لها ما يسدها، فالإنسان يحتاج للطمأنينة فهناك الصلاة والذكر، ويحتاج لتذكر الجزاء والإحساس بالمسكين فشرع الصوم، ويحتاج للفرار من النفس والذنب فكان الحج.. ويحتاج بعض الناس للقوت ورفع الضرورة فوجبت الزكاة ليكون قوت الفقير مكفولاً، وضرورته مرفوعة، ونسبة الزكاة مناسبة لنسبة الفقر في المجتمع.

فعن قثم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (قلت: جعلت فداك أخبرني عن الزكاة كيف صارت من كل ألف خمسة وعشرين درهماً لم يكن أقل أو أكثر ما وجهها؟ قال: إن الله عز وجل خلق الخلق كلهم فعَلِم صغيرهم وكبيرهم وعَلِم غنيهم وفقيرهم فجعل من كل ألف إنسان خمسة وعشرين مسكيناً، فلو عَلِم أن ذلك لا يسعهم لزادهم لأنه خالقهم وهو أعلم بهم)[٢].

وعن أبي عبد الله عليه السلام: (إن الله عز وجل جعل للفقراء في أموال الأغنياء ما يكفيهم، ولولا ذلك لزادهم وإنما يؤتون من منع من منعهم)[٣]، أي يحتاجون لعدم إيتاء الزكاة من قبل الأغنياء، وإلاّ فلا نقص في قوانين الله عز وجل.

لذا قال الصادق عليه السلام في حديث آخر: (ولو أن الناس أدوا حقوقهم لكانوا عايشين بخير)[٤].

علّة تشريع الزكاة:

١- انظر لسان العرب مادة «زكا».

٢- البحار: ج٢٠ ص١٤ عن علل الشرائع: ج٢ص٣٦٩.

٣- البحار: ج٩ ص٩

٤- وسائل الشيعة: ج٩ ص٩.

ولتشريع الزكاة علل كثيرة منها في رواية عبد الله بن سنان عن الرضا عليه السلام أنه كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله: (إن علة الزكاة من أجل قوت الفقراء، وتحصين أموال الأغنياء لأن الله عز وجل كلف أهل الصحة القيام بشأن أهل الزمانة والبلوى كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[1] في أموالكم إخراج الزكاة، وفي أنفسكم توطين الأنفس على الصبر، مع ما في ذلك من أداء شكر نعم الله عز وجل والطمع في الزيادة، مع ما فيه من الزيادة والرأفة والرحمة لأهل الضعف والعطف على أهل المسكنة والحث لهم على المواساة، وتقوية الفقراء والمعونة لهم على أمر الدين، وهو عظة لأهل الغنى وعبرة لهم ليستدلوا على فقر الآخرة بهم، وما لهم من الحث في ذلك على الشكر لله تبارك وتعالى لما خولهم وأعطاهم والدعاء والتضرع والخوف من أن يصيروا مثلهم في أمور كثيرة...)[2].

عاقبة منع الزكاة:

ثم إنه قد جاء في أحاديث كثيرة التحذير من ترك إعطاء الزكاة، وبيان لعاقبة مانعها مما يكشف عن أهميتها وأنها من ركائز الدين والإسلامي الحنيف، ومن الأحاديث:

١. عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (... فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: الزكاة قنطرة الإسلام، فمن أداها جاز القنطرة ومن منعها احتبس دونها، وهي تطفئ غضب الرب)[3].

٢. عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: (إن الله تبارك وتعالى قرن الزكاة بالصلاة فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ﴾[4] فمن أقام الصلاة ولم يؤتِ الزكاة فكأنه لم يقم الصلاة)[5].

١- سورة آل عمران: ١٨٦.

٢- وسائل الشيعة: ج٩ ص١٣.

٣- أمالي الطوسي: ص٥٢٢.

٤- سورة البقرة: ٤٣.

٥- وسائل الشيعة: ج٩ ص٢٢.

٣. عن الإمام الصادق عليه السلام: (مَن منع الزكاة سأل الرجعةَ عند الموت، وهو قول الله عز وجل: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ❁ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾[١])[٢].

والزكاة يجب أن تدفع لمستحقيها وفي جهات صرفها وهذا ما أراده عليه السلام بقوله (في أهلها)، وهم من ذكرهم الكتاب الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ﴾[٣].

تعريف الأصناف:

١. الفقراء والمساكين: وهم الذين لا يملكون قوت سنتهم[٤]، والمسكين زيادة أشد فقراً من الفقير لما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: (الفقير الذي لا يسأل الناس، والمسكين: أجهد منه، والبائس أجهدهم...)[٥]، وهو الموافق لأهل اللغة، قال أحدهم: (قلت لأعرابي: أفقير أنت؟ قال: لا والله بل مسكين)[٦].

٢. العاملون عليها: وهم العاملون الذين يسعون في تحصيلها وتحصينها وكل ما له مدخل في الجمع والحفظ حتى تصل إلى المستحقين[٧]، ففي الخبر عن العالم عليه السلام: (... والعاملين عليها هم السعاة والجباة في أخذها وجمعها وحفظها حتى يؤدوها إلى من يقسمها)[٨].

٣. المؤلفة قلوبهم: وهم صنفان: الكفار الذين يستمالون للإسلام ومعاونة المسلمين، والمسلمون من ضعاف العقيدة يعطون من الزكاة ليحسن إسلامهم،

١- سورة المؤمنون: ٩٩-١٠٠.
٢- وسائل الشيعة: ج٩ ص٢٧.
٣- سورة التوبة: ٦٠.
٤- انظر جواهر الكلام: ج٥ ص٦٠٠.
٥- وسائل الشيعة: ج٩ ص٢١١.
٦- انظر جواهر الكلام: ج٥ ص٦٠١.
٧- انظر جواهر الكلام: ج٥ ص٦٢٠.
٨- الوسائل: ج٩ ص٢١٣.

بل وإيمانهم[١].

٤. الرقاب: وهم العبيد يعتقون من الزكاة كمن كان منهم تحت الشدة[٢].

٥. الغارمون: وهم الذين علتهم الديون في غير معصية وعجزوا عن أدائها، ففي الرواية عن الإمام الصادق عن أبيه عليهما السلام: (إن علياً عليه السلام كان يقول: يُعطى المستدينون من الصدقة والزكاة دينهم كله إذا استدانوا في غير سرف)[٣].

٦. سبيل الله عز وجل: ويقصد به المصالح العامة للمسلمين، كتعبيد الطرق، وبناء المؤسسات الدينية من مساجد ومدارس وملاجئ للفقراء ونشر الكتب الإسلامية وغيرها، والسبيل هو الطريق فإذا أضيف إلى الله سبحانه كان عبارة عن كل ما يحصل رضاه وثوابه سبحانه وتعالى[٤].

٧. ابن السبيل: هو المسافر الذي نفدت نفقته، أو تلفت وسيلة نقله بشرط أن لا يكون سفره لمعصية، وعدم إمكان تدبير أمر رجوعه[٥].

شروط الزكاة:

الزكاة عبادة، لذا يشترط بها النية والإخلاص، ولها وقت أداء وهذا ما أراده عليه السلام بقوله (عند محلها)، وبما أن الزكاة تجب في النقدين (الذهب والفضة المسكوكين سكة المعاملة) والغلات الأربع (الحنطة والشعير والتمر والزبيب) والأنعام الثلاثة (الغنم والبقر والإبل)، فإذا بلغ النقدان النصاب وهو المقدار الذي إذا بلغته وجبت شرعاً الزكاة إذا حال عليه الحول وهو في ملك مالكه وهذا المقدار خمسة عشر مثقالاً صيرفياً من الذهب ثم إذا زادت ثلاثة مثاقيل وهكذا ومقدار الزكاة في النصاب الأول نصف العشر وكذلك في الثاني.

وفي الفضة إذا بلغت مائة وخمسة مثاقيل وفيه ربع العشر، ثم إذا زادت فكل واحد

١- انظر الجواهر: ج٥ ص٦٢٥؛ والمسائل المنتخبة، للسيد السيستاني: ص١٨٧.

٢- الجواهر: ج٥ ص٦٢٧.

٣- الوسائل: ج٩ ص٢٦١.

٤- انظر جواهر الكلام: ج٥ ص٦٤٠؛ المسائل المنتخبة: ص١٨٧.

٥- انظر المسائل المنتخبة: ص١٨٨.

وعشرين مثقالاً فيه ربع العشر وهكذا وفي الغلات الأربع إذا بلغت ثمانمائة وسبعة وأربعين كيلو غراماً، وهو التقدير التقريبي لثلاثمائة صاع الذي هو نصاب الحنطة والشعير والتمر والزبيب، والمقدار الواجب إخراجه العشر لو سقيت سيحاً، ونصف العشر لو سقيت بالآلات، ولو سقيت بالأمرين فثلاثة أرباع العشر.

أما زكاة الإنعام لو دار الحول عليها وهي في ملك مالكها بالغة النصاب، وهو مختلف فيها ففي الغنم لو بلغت أربعين وهو النصاب الأول ففيها شاة وفي الغنم خمسة نصب.

والإبل لو بلغت خمسة ففيها شاة وفيها اثنا عشر نصاباً، وفي البقر ويشمل الجاموس فلو بلغت ثلاثين ففيها بقرة دخلت في السنة الثانية من عمرها، وفي البقر نصابان، وهناك تفاصيل كثيرة في الزكاة ووجوبها وإخراجها ومستحقيها وأنصبتها لابد من الرجوع فيها إلى كتب الفقه للخروج من عهدة تكليفها.

قوله عليه السلام:

(والصمت عند الشبهة)

الشبهة هي ما يلتبس أمره، ولا يبين فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (إنما سُمّيت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق)[1]، وقد تكون الشبهة في العقيدة كقضية رؤية الله سبحانه في الآخرة، لقوله سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[2] لكن ذلك مخالف للعقل لأنه لو أمكن رؤيته سبحانه كان محدوداً، محيزاً، محتاجاً لمكان وهكذا من اللوازم الباطلة فلابد من تأويل النص القرآني لأنه من المتشابه فلابد من رده إلى المحكم لقوله تعالى: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾[3].

فإن قيل: لابد من الأخذ بجميع ظواهر القرآن الكريم، ولا يمكن التأويل، فيجاب: كيف نعمل بمثل قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ

١- نهج البلاغة: خطبة ٣٨.

٢- سورة القيامة: ٢٢-٢٣.

٣- سورة الإنعام: ١٠٣.

وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[١]، فلابد من تأويل العمى الأول، وإلا فما ذنب الضرير في الدنيا ليكون في الآخرة أعمى؟ بل وأضل سبيلا، فلابد من أن يكون المراد بالعمى الأول هو عمى البصيرة، وعليه فلا مهرب من تأويل الآية تحفظاً على عقيدة العدل الإلهي، وعليه فلا مناص من تأويل ما كان مثل هذا المثال من ظواهر القرآن العزيز.

وعليه فمن لا يتضح له الأمر في مسألة اعتقادية يجب عليه التوقف ولا يقحم نفسه بلا روية، فعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: (الوقوف عند الشبهة خيرٌ من الاقتحام في الهلكة...)[٢].

وعنه أيضاً عليه السلام لما سأله زرارة عن حق الله على العباد، قال: (أن يقولوا ما يعلمون، ويقفوا عندما لا يعلمون)[٣].

وقد تكون الشبهة في مقام العمل كأن يشتبه أمر طعام أو شراب أو نكاح أو بيع أو شراء أو قرض وغيرها.

فإن الاحتياط للنفس والدين يقتضي التوقف، فعن الإمام الصادق عليه السلام في حديث عمر بن حنظلة: (إنما الأمور ثلاثة: أمرٌ بيِّنٌ رشده فيُتبع، وأمرٌ بيِّنٌ غيّه فيُجتنب، وأمرٌ مُشْكل يُرَد علمه إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: حلال بين، وحرام بين، وشبهات بين ذلك، فمَن ترك الشبهات نجا من المحرمات، ومن أخذ بالشبهات ارتكب المحرمات وهلك من حيث لا يعلم)[٤].

وقد جاء عن الصادق عليه السلام: (أورع الناس من وقف عند الشبهة)[٥]. وإليك مثالاً يقرب المطلب:

لقد توافر في أسواق الدول الإسلامية شراب يسمى بماء الشعير، وماء الشعير كما هو معروف يصنع منه بعض أنواع الخمر، فماء الشعير الموجود الآن لو كان فيه آثار الخمر ولو بدرجة قليلة فهو حرام، وإلّا فلا، وهو مشتبه ومقتضى التوقف

١- سورة الإسراء: ٧٢.

٢- ميزان الحكمة: ج٢ ص١٤٠٤.

٣- نفس المصدر: ص١٤٠٥.

٤- الكافي: ج١ص٦٨.

٥- ميزان الحكمة: ج٢ ص١٤٠٥.

عن الشبهة اجتناب شربه، فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (من التوفيق الوقوف عند الحيرة)[١].

وما أجمل كلمات الإمام زين العابدين عليه السلام في الدعاء: (ووفقني إذا اشتكلت علي الأمور لأهداها، وإذا تشابهت الأعمال لأزكاها، وإذا تناقضت الملل لأرضاها)[٢].

لكن من الناس من يجتري ويوقع نفسه عن عمد في الشبهات والمحرمات بل يجعل الشبهة مبرراً لتصرفاته، قال أمير المؤمنين عليه السلام لعمار بن ياسر وقد سمعه يراجع المغيرة بن شعبة كلاماً: (دعه يا عمار، فإنه لم يأخذ من الدين إلا ما قاربه من الدنيا، وعلى عمد لبس على نفسه ليجعل الشبهات عاذراً لسقطاته)[٣].

قوله عليه السلام:

(والعدل في الرضا والغضب)

هنا ثلاثة مفاهيم:

الأول: العدل:

وهو ضد الظلم ويتعلق بالله عز وجل بأن لا يكون العبد ظالماً لربه سبحانه كأن يبخسه حقه في المعرفة أو التوحيد أو العبادة أو الشكر بأن يوجه العبادة لغيره مثلاً فيكون ظالماً لربه.

ويتعلق بالنفس، بأن تعطى نصيبها، ولا تطاع في كل ما تريد لأنها ستطلب المزيد، ولو من طريق غير مشروع فيقع في الظلم لها ولغيرها.

ويكون العدل مع المجتمع وهو أن يرعى حقوق أفراده، وكف الأذى والإساءة عنهم وحب الخير لهم وحسن المداراة معهم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ

١- ميزان الحكمة: ص١٤٠٤.

٢- الصحيفة السجادية: دعاء: ٢٠.

٣- نهج البلاغة: حكمة ٤٠٥.

تَذَكَّرُونَ﴾[١].

وفي درة من درر بيان أمير المؤمنين عليه السلام ضبط قواعد العدل مع الناس فقال وهو يوصي ولده: (يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم، وأحسن كما تحب أن يُحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك، وارضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم وإن قلّ ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك)[٢].

لعمري أن هذه القواعد في التعامل حريّ بأن يُتدبّر فيها ولا توجد إلا عند قادة الدين عترة محمد صلى الله عليه وآله، فهي ترسم المبادئ الأساسية للعدل المعاملي في محيط الإنسان الاجتماعي.

الثاني: الرضا:

وهو ما يضاد السخط والرضا يكون عن الله سبحانه بأن يتقبل ما يقضي به عز وجل، والطمأنينة باختياره وهو من صفات أشراف العباد، فعن الإمام الصادق عليه السلام: (إن أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله عز وجل)[٣].

وقيل للإمام الحسن عليه السلام: إن أبا ذر يقول: الفقر أحب إليَّ من الغنى، والسقم أحب إليّ من الصحة، فقال عليه السلام: (رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتكل على حُسن اختيار الله له لم يتمَنَّ غير الحالة التي اختار الله له...)[٤].

فإن من وثق به سبحانه وأيقن حكمته لم يتمنّ غير الحالة التي أرادها الله سبحانه، ومن ضعفت معرفته اقترح لنفسه وربما كان في ذلك هلاكه، فالطفل حينما لا يحب الذهاب للطبيب، أو يهرب من ذلك لا يعلم أن هذا الطبيب سوف يعالجه، وذلك لمصلحته، وكذلك الجاهل بقدرة المولى عز وجل وحكمته ورحمته بعباده.

ثم إن المقادير جارية، لا يؤثر فيها رضا أو سخط العبد، روي أنه تعالى أوحى إلى

١- سورة النحل: ٩٠.

٢- نهج البلاغة: ج٢ ص٤٥.

٣- الكافي: ج٢ ص٦٠.

٤- كنز العمال: ج٣ ص٧١٢.

النبي داود عليه السلام: (تريد وأريد، وإنما يكون ما أريد، فإن سلمت لما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد)[١].

وإنما يؤثر الرضا والسخط سلباً أو إيجاباً في استحقاق العبد للأجر، والعطاء الإلهي فعن الصادق عليه السلام: (من رضى بالقضاء أتى عليه القضاء وهو مأجور، ومن سخط القضاء أتى عليه القضاء، وأحبط الله أجره)[٢].

ويكون الرضا عن الناس فيما لو انسجمت أقوالهم وأفعالهم مع إرادة الإنسان ولم يبدر منهم ما يسبب سخطه عليهم.

الثالث: الغضب:

وهو حالة نفسانية انفعالية يخرج بها الإنسان عن سمته، ويفارق بها اتزانه وهو ممدوح إذا كان لله تعالى والحق، قال سبحانه في معرض مدح المجاهدين من الصحابة: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾[٣] فلابد للإنسان من قوة غضبية لا تخرج عن حد الاعتدال إلى التهور والجنون بها يدافع عن مقدساته ونفسه وعِرضه وماله، لذا قيل: من استغضب ولم يغضب فهو حمار.

فعن الإمام الكاظم عليه السلام: (من لم يغضب في الجفوة، لم يشكر النعمة)[٤]، وأيضاً عنه عليه السلام: (من لم يجد للإساءة مضضاً، لم يكن عنده للإحسان موقعاً)[٥] لأن مثل هذا الإنسان يكون بلا إحساس.

ويكون الغضب مذموماً إذا خرج عن قيادة الدين وسياسة العقل المنظم للأقوال والأفعال، لأنه معه يكون الإنسان مريداً للانتقام، أما باللسان أو اليد وربما يقتل فيخرج به عن حد الإنسانية.

١- الأخلاق والآداب الإسلامية: ص٤٨٠ عن المحجة البيضاء.

٢- البحار: ج٦٨ ص١٣٩.

٣- سورة الفتح: ٢٩.

٤- ميزان الحكمة: ج٣ ص٢٢.

٥- ميزان الحكمة: ج٣ ص٢٢٧.

كالإفراط في الغضب على الزوجة والأولاد والمرؤوسين، أو على الأقران بل وحتى على الحيوان.

لذا جاء عن الرسول الأكرم ﷺ: (الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل)[١].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (إياك والغضب فأوله جنون، وآخره ندم)[٢].

والغضب لا يضر الوجود الديني والمعنوي للإنسان فحسب، بل يلحق الأذى بالجسد، يقول أحد المختصين: (إن الغضب يذهب بشهوة الطعام، ويعسر حركة الهضم، ويوجد الخلل في التوازن العضوي والعصبي ساعات بل أياماً، إنه يؤثر على جميع الإمكانات الجسمانية والقوى الفكرية والمعنوية، وأن غضبت الأم المرضعة قد يؤدي بلبنها إلى التسمم الخطير)[٣].

إذا عرفت هذا فيكون معنى ما أفاده أمير المؤمنين عليه السلام الوصية بالاعتدال وعدم الظلم في الحكم على الأشياء والأشخاص في حالتي الرضا -أي عدم السخط-، والغضب -أي الانفعال تجاه الأقوال والأفعال والشخوص- وبذلك يكون الإنسان مؤمناً حكيماً وعاقلاً.

ففي حديث فاطمة بنت الحسين عليهما السلام، قالت: (قال رسول الله ﷺ: ثلاث من كنّ فيه يستكمل خصال الإيمان: الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتعاط ما ليس له)[٤].

قوله عليه السلام:

(وحُسن الجوار)

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى

١- الكافي: ج٢ ص٣٠٢.

٢- البحار: ج٧٣ ص٢٦٥.

٣- دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية: ص١٤١.

٤- وسائل الشيعة: ج٥ ص٣٥٩.

وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾[١].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (الله الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم، ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم)[٢].

وهنا مطالب:

الأول: في حد الجار، وللفقهاء فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: إنه إلى أربعين داراً من كل جانب.

ثانيهما: إنه إلى أربعين ذراعاً من كل جانب.

ثالثهما: ما عدّه العُرف جاراً فهو جار، وعليه العمل لأن العُرف هو المرجع في تحديد المفاهيم التي لم يرد من الشرع الأقدس لها بيان.

الثاني: في أقسام الجار وهذا ما بينه الحديث الوارد عن النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله حيث قال: (الجيران ثلاثة فمنهم من له ثلاثة حقوق، حق الإسلام، وحق القرابة، وحق الجوار، ومنهم له حقان حق الإسلام وحق الجوار، ومنهم من له حق واحد، الكافر له حق الجوار)[٣].

الثالث: في معنى حسن الجوار، وهو الصبر على أذى الجار زيادة على الإحسان إليه، فعن الإمام الكاظم عليه السلام: (ليس حُسن الجوار كف الأذى، ولكن حُسن الجوار الصبر على الأذى)[٤].

الرابع: في أفراد الإحسان وكف الأذى والصبر عليه، فإنه روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: (إن استغاثك أغثته، وإن استقرضك أقرضته، وإن افتقر عدت عليه، وإن

١- سورة النساء: ٣٦.

٢- نهج البلاغة: الكتاب ٤٧.

٣- مستدرك الوسائل: ج٨ ص٤٢٥.

٤- الكافي: ج٢ ص٦٦٧.

أصابته مصيبة عزيته، وإن أصابه خير هنأته، وإن مرض عدته، وإن مات اتبعت جنازته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فاهدِ له، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا تخرج بها ولدك تغيض بها ولده، ولا تؤذه بريح قدرك إلا أن تغرف له منه)[١].

وعن زين العابدين عليه السلام: (أما حق جارك فحفظه غائباً، وإكرامه شاهداً، ونصرته إذا كان مظلوماً، ولا تتبع له عورة، فإن علمت عليه سوءاً سترت عليه، وإن علمت أنه يقبل نصيحتك نصحته فيما بينك وبينه، ولا تسلمه عند شديدة، وتقيل عثرته، وتغفر ذنبه وتعاشره معاشرة كريمة)[٢].

ومن هذه النصوص وغيرها نعرف أن للجار حرمة كبيرة لابد من حفظها ومن أهم ما يندرج تحت هذه الحرمة حفظه في حريمه شاهداً وغائباً، فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (ما تأكدت الحرمة بمثل المصاحبة والمجاورة)[٣]، وهذا الحفظ يكون بعدم التطلع على دار الجار، والنظر إلى نسائه فضلاً عن غير ذلك من أنواع الخيانة له.

ولقد كان ذلك من شيم العرب قبل أن يكون من أخلاق الدين حتى قال شاعرهم:

ناري ونار الجار واحدة ... وإليه قبلي تنزل القدر
ما ضرّ جاراً لي أجاوره ... أن لا يكون لبابه ستر
أعمى إذا ما جارتي خرجت ... حتى يواري جارتي الخدر

الخامس: في بعض آثار حسن الجوار، فالإحسان إلى الجيران من العلل المعنوية لبعض مطلوبات الإنسان ومحبوباته وكذلك يكون علة مادية لبعضها كما ستعرف، ومن هذه المطلوبات:

١- ميزان الحكمة: ج١ ص٤٨٨.

٢- رسالة الحقوق/ حق الجار.

٣- ميزان الحكمة: ج١ ص٤٨٦.

١. عمارة الديار وزيادة الإعمار، فعن الإمام الصادق عليه السلام: (حسن الجوار يعمر الديار ويزيد في الاعمار)[١].

٢. الزيادة في الرزق، فعنه عليه السلام: (حسن الجوار يزيد في الرزق)[٢].

٣. المحسن لجاره يكون مؤمناً، فعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: (أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمناً)[٣].

٤. كثرة المساعدين عند الحاجة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: (من أحسن إلى جيرانه كثر خدمه)[٤].

السادس: في إيذاء الجار، وهو من أقبح الأخلاق، وأرذل الصفات، لذا استعاذ النبي من الجار السوء بقوله صلى الله عليه وآله: (أعوذ بالله من جار السوء في دار إقامة تراك عينه ويرعاك قلبه، إن رآك بخير ساءه، وإن رآك شر سره)[٥].

فلذا ورد التأكيد على اجتناب أذى الجار بكل مصاديق الإيذاء، واليك بعض الأحاديث في ذلك:

١. عن النبي صلى الله عليه وآله: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُؤذِ جاره)[٦].

٢. عن الإمام الرضا عليه السلام: (ليس منا من لم يأمن جاره بوائقه)[٧].

٣. ومن مقدمات عدم الوقوع في مهلكة إيذاء الجار التفقد للجار، فعن النبي صلى الله عليه وآله: (ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره طاوياً، ما آمن بي مَن بات كاسياً وجاره عارياً)[٨].

٤. عن أبي عبد الله عليه السلام: (إن يعقوب عليه السلام لما ذهب منه بنيامين نادى يا رب

١- الكافي: ج٢ص٦٦٧.

٢- ميزان الحكمة: ج١ ص٤٨٦.

٣- نفس المصدر.

٤- نفس المصدر.

٥- الكافي: ج٢ ص٦٦٩.

٦- الكافي: ج٢ ص٦٦٧.

٧- عيون أخبار الرضا: ج٢ ص٢٤.

٨- مستدرك الوسائل: ج٨ ص٤٢٩.

أما ترحمني؟ أذهبت عينيّ وأذهبت ابنيّ؟ فأوحى الله تبارك وتعالى لو أمتهما لأحييتهما لك حتى أجمع بينك وبينهما ولكن تذكر الشاة التي ذبحتها وشويتها وأكلت وفلان إلى جانبك صائم لم تنله منه شيئاً)[١].

وفي رواية أخرى قال: فكان بعد ذلك يعقوب عليه السلام ينادي مناديه كل غداة من منزله إلى فرسخ، إألا من أراد الغداء فليأتِ إلى يعقوب، وإذا أمسى ألا من أراد العشاء فليأتِ إلى يعقوب)[٢]. وهذا خوفاً من الابتلاء بسبب الإيذاء.

قوله عليه السلام:

(وإكرام الضيف)

الإكرام عنوان له أفرادٌ كثيرة، والضيف معروف وهو الذي ينزل عند المقيم من سفر وغيره، وهذه الصفة من مكارم الأخلاق فعنه صلى الله عليه وآله : (إن من مكارم الأخلاق إقراء الضيف)[٣].

وهي من صفات المولى عز وجل فهو يكرم أهل مملكته بما لا يحصى من النعم والعطايا، فهم يأكلون من رزقه وينعمون على موائد إحسانه، العارف منهم به سبحانه والجاهل، والمؤمن والكافر، والشاكر والجاحد، لأنه محض العطاء والكرم ولقد كانت هذه الصفة عند رسله عليهم السلام، قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[٤] أي مشوي.

وعن رسول الإسلام صلى الله عليه وآله: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)[٥]. وهذا التعبير جاء غير مرة عن النبي صلى الله عليه وآله وهو يعني أن الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر يقتضي إكرام الضيف، والإنسان يحتاج بالنسبة إليه تعالى إلى التقرب، وبالنسبة

١- الكافي: ج٢ ص٦٦٧.
٢- الكافي: ج١ ص٦٦٧.
٣- مستدرك الوسائل: ج١٦ ص٢٤١.
٤- سورة هود: ٦٩.
٥- جامع الأخبار: ص٣٧٧.

لليوم الآخر إلى النجاة والفوز، وعليه يكون الإكرام مقرباً ومن أسباب النجاة والفوز، فكل محبوب لديه سبحانه يكون مقرباً، وكل مبغوض مبعداً، وقِرى الضيف من المحبوبية عنده تعالى بمكان.

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: (أتى رسول الله صلى الله عليه وآله بأسارى، فقدم رجلاً ليضرب عنقه، فقال جبرائيل: يا محمّد ربك يقرؤك السلام ويقول: إن أسيرك هذا يطعم الطعام، ويقرئ الضيف، ويصبر على النائبة ويتحمل الحمالات، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: إن جبرائيل أخبرني عنك -عن الله- بكذا وكذا، وقد أعتقتك، فقال له: وإن ربك ليحب هذا؟ فقال: نعم، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، والذي بعثك بالحق لا رددت عن مالي أحداً أبداً)[١]، هذا بالنسبة للقربة، وأما بالنسبة للنجاة فعن جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام إن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال: إنّي أحسن الوضوء وأقيم الصلاة وأؤتي الزكاة في وقتها، وأقرئ الضيف طيبة بها نفسي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: بخ بخ بخ ما لجهنم عليك سبيل إن الله قد برأك من الشح إن كنت كذلك)[٢].

ثم إن مجيء الضيف يكشف عن أنه سبحانه أراد بالمضيف وأهل بيته خيراً فأهدى لهم هدية أثرها الرزق ومغفرة الذنوب، فعن النبي صلى الله عليه وآله إنه قال: (إذا أراد الله بقوم خيراً أهدى لهم هدية، قالوا: وما تلك الهدية؟ قال: الضيف ينزل برزقه، ويرتحل بذنوب أهل البيت)[٣]. فعلى هذا يكون إكرام الضيف من الشكر له سبحانه لمكان هديته وعرفاناً بجميل صنعه سبحانه وتعالى.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (ما من مؤمن يحب الضيف إلا ويقوم من قبره ووجهه كالقمر ليلة البدر، فينظر أهل الجمع فيقولون: ما هذا إلا نبي مرسل، فيقول مَلك: هذا مؤمن يحب الضيف ويكرم الضيف، ولا سبيل إلا أن يدخل الجنة)[٤].

ولعله لهذا ولغيره رؤي الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حزيناً فقيل له: مِمّ حزنك؟ قال:

١- المحاسن: ص٣٨٨.

٢- الوسائل: ج٢٤ ص٢٧٩.

٣- مستدرك الوسائل: ج١٦٧ ص٢٥٨.

٤- مستدرك الوسائل: ج١٦ ص٢٥٧.

(لسبع أتت لم يضف إلينا ضيف)[١].

كيفية الإكرام:

وقد ذكر له أفراد كثيرة منها:

١ . البشر والبشاشة:

فعن النبي ﷺ (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فألقوهم بطلاقة الوجه وحسن البشر)[٢] فالكريم يهش لقدوم الضيف ويكون جميل اللقاء حسن الاستقبال.

ولحاتم الطائي:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله
ويخصب عندي والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى
ولكنما وجه الكريم خصيب

٢ . إطعام الضيف:

فعن الإمام الصادق عليه السلام: (إذا دخل عليك أخوك فاعرض عليه الطعام، فإن لم يأكل فاعرض عليه الماء، فإن لم يشرب، فاعرض عليه الوضوء)[٣].

ومن جملة القِرى بالطعام أن تقدم الفاكهة قبل الطعام لأنه أوفق بالطب وأبعد عن الضرر، كما قدمها سبحانه في قوله عز وجل: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۞ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾[٤] [٥].

فالظاهر أن تقديم الفاكهة في الكتاب العزيز على اللحم ليس بلا علة، بل وذكر لحم الطير من بين اللحوم لأنه أكثر فائدة، وأقل ضرراً كما هو عند أهل

١- المناقب: ج١ ص٣٤٧.

٢- الكافي: ج٢ ص١٠٣.

٣- الكافي: ج١ ص٢٧٥.

٤- سورة الواقعة: ٢٠-٢١.

٥- انظر الأربعون حديثا للشيخ البهائي: ص٣٠٦.

الاختصاص.

٣. المؤاكلة وحسن الحديث:

عن الإمام الكاظم عليه السلام: (إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا أتاه الضيف أكل معه، ولم يرفع يده من الخوان حتّى يرفع الضيف يده)[٦].

لأن صاحب البيت إذا أكل مع الضيف رفع عنه الحياء، وإلّا فسوف يكفّ ولا يأكل كفايته من الطعام.

وعن عبد الرحمن بن الحجاج قال أكلنا مع أبي عبد الله عليه السلام ، فأتينا بقصعة من أرز، فجعلنا نعذر، فقال: ما صنعتم شيئاً، إن أشدكم حباً لنا أحسنكم أكلاً عندنا، فقال: عبد الرحمن فرفعت كسرة الطعام فأكلت، فقال عليه السلام: الآن...)[٧].

وروي أن الصادق عليه السلام كان يلقم أصحابه ويقول: (من لقم مؤمناً لقمة حلاوة صرف الله عنه مرارة يوم القيامة)[٨].

٤. عدم التكلف للضيف:

عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: (من تكرمة الرجل لأخيه أن يقبل تحفته وأن يتحفه بما عنده ولا يتكلف له شيئاً)[٩].

فعدم التكليف يكشف عن تجاوز التعارفات الشكلية التي تصنع مخافة الانتقاد، ومن أن المضيف لا يحتشم من الضيف وأن العلاقة أخوية، جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: (المؤمن لا يحتشم من أخيه، وما أدري أيهما أعجب: الذي يكلف أخاه إذا دخل عليه أن يتكلف له، أو المتكلف لأخيه)[١٠].

٦- الكافي: ج٦ ص٨٥.

٧- الكافي: ج٦ ص٢٧٨.

٨- المحاسن: ص٤١٣.

٩- المحاسن: ص٤١٥.

١٠- المحاسن: ص٤١٥.

٥. تهيئة وسائل الراحة للضيف:

فمع حسنه العقلي عليه عرف الكرام.

٦. عدم إعانة الضيف عند الارتحال:

ففي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: (... فإذا نزل بكم الضيف فأعينوه، وإذا ارتحل فلا تعينوه، فإنه من النذالة، وزودوه وطيّبوا زاده فإنه من السخاء)[١].

بقي شيء:

إن حد الضيافة من جهة الوقت ثلاثة أيام، فإن المضيف يحاول التلطف في القِرى وغيره فيها وما بعدها يقدم للضيف ما يقدم للعيال، وعلى الضيف أن لا يكون ثقيلاً، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الضيافة أول يوم والثاني والثالث، وما بعد ذلك فإنها صدقة تصدق بها عليه، قال: ثم قال صلى الله عليه وآله: لا ينزل أحدكم على أخيه حتى يوثمه[٢] معه. قيل يا رسول كيف يوثمه؟ قال: حتى لا يكون عنده ما ينفق عليه)[٣].

قوله عليه السلام:

(ورحمة المجهود وأصحاب البلاء)

الرحمة ضد القسوة والشدة قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[٤] وهي نوع من إظهار الشفقة بما يناسب موقف ما أو

١- الكافي: ج٦ ص٢٨٤.

٢- يوثمه: أي يوقعه في التعب والمشقة والتكلف.

٣- الكافي: ج٦ ص٢٨٣.

٤- سورة الفتح: ٢٩.

شخص، وهي معدن الفضائل فبها يبر الولد أباه، ويصل المرء قريبه، ويكفل اليتيم، ويعان المضطر، ويُهتم حتّى بالحيوان.

وبالرحمة تُستحصل الرحمة الإلهية، فعن النبي ﷺ: (والذي نفسي بيده لا يضع الله المرحمة إلا على رحيم، قالوا: كلنا رحيم، قال: ليس الذي يرحم نفسه وأهله خاصة، ولكن الذي يرحم المسلمين، وقال ﷺ: قال تعالى: إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا)[1].

وعنه ﷺ: (ينادي مناد في النار: يا حنان يا منان نجني من النار، فيأمر الله ملَكاً فيخرجه حتّى يقف بين يديه، فيقول الله عز وجل: هل رحمت عصفوراً)[2].

وعليه فليس للإنسان فضلاً عن المؤمن إلا أن يكون رحيماً بجميع الخلق، ولا يكون قاسياً جافياً، والمجهود من وقع في تعب ومشقة، وبعبارة أخرى هو من أتعبته الدنيا، ومثله يستحق الرحمة والشفقة والمعونة لأنه ينتظرها من غيره لابد له منها. وهناك عناوين وردت في الآثار الشريفة أنهم مواضع للرحمة لذا جاء الأمر برحمتهم.

فعن الرسول الأكرم ﷺ: (ارحموا عزيزاً ذل، وغنياً افتقر، وعالِماً ضاع بين جُهّال) [3] ولعمري أن الأحوج للرحمة من بين هؤلاء العالِم بين الحمقى والمغفلين والجُهّال.

وعنه ﷺ: (ارحم المساكين)[4]، وفي وصية للنبي ﷺ لعلي عليه السلام: أنه قال: (يا علي أربع من كن فيه بنى الله له بيتاً في الجنة: من آوى اليتيم، ورحم الضعيف، وأشفق على والديه، ورفق بمملوكه..)[5].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (ارحم من دونك يرحمك من فوقك)[6] وجاء الأمر برحمة الصغير وهو موجود في الوصية.

فتحصّل أن لدينا مواضع للرحمة، العزيز الذي نكبته الدنيا، والغني الذي تحول به

١- مستدرك الوسائل: ج٩ ص٥٥.

٢- كنز العمال: ج٣ ص١٦٧.

٣- الكافي: ج٨ ص١٥٠.

٤- مسند أحمد: ج٥ ص١٧٣.

٥- الخصال: ص٢٢٣.

٦- عيون الحكم والمواعظ: ص٧٨.

الزمان، والعالم المبتلى بالجُهّال، والمساكين، والضعفاء، ومَن هو دون الإنسان في الرتبة الاجتماعية، والصغير بل وكل من له روح كالعصفور وكل منهم رحمته بحسبه.

وأصحاب البلاء ضد العافية، وهم الذين ابتلوا بأبدانهم بأمراض مزمنة أو عاهات مستديمة، وهم لا يحتاجون للرحمة والعطف فحسب، بل للمعاملة الخاصة خوفاً على قلوبهم من الكسر، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: (مرّ علي بن الحسين صلوات الله عليهما على المجذومين وهو راكب حماره وهم يتغدون فدعوه إلى الغداء فقال: أما إني لولا أني صائم لفعلت، فلما صار إلى منزله أمر بطعام، فصنع وأمر أن يتنوقوا فيه، ثم دعاهم فتغدوا عنده وتغدى معهم)[١] فعل ذلك جبراً لقلوبهم.

ويطلق البلاء على أنواع الامتحانات الدنيوية والمصائب، فيكون أصحابها ممن يستحق الرحمة.

قوله عليه السلام:

(وصلة الرحم)

الصلة ضد الهجران [٢]، والتواصل ضد التصادم والتقاطع..

والرحم: أسباب القربة، وأصلها الرحم التي هي منبت الولد. والرحم: القرابة[٣]. وكذا في العرف، ولأجل اللغة والعرف ذهب علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام إلى أن الرحم في الشرع، القرابة المطلقة، لعدم ذكر الشرع معنى آخر للرحم فوجب صرفه للمعنى المتعارف، فكل ما عدّه العرف قريباً فهو من الأرحام شرعاً.

وصلة الرحم واجبة بالحدّ الذي يخرج به المرء عن القطيعة، وربما يكون ذلك ببذل المال إذا كان أحدهما غنياً والآخر فقيراً، وتكون بالزيارة، والسلام، والإهداء، والسؤال عن الحال، ولو كان ذلك بالهاتف، وبالدعاء في ظهر الغيب، وحسن الذكر في المحضر، وكف الأذى، وبالجملة بكل ما يصدق عليه أنه صلة وتواصل وربما تكون مستحبة إذا زادت عن المقدار الواجب، وإليك بعض ما يدل على

١- الكافي: ج٢ ص١٢٣.

٢- انظر لسان العرب: ج١١ ص٦٧٨.

٣- لسان العرب: ج١٢ص٢٣٢.

ذلك:

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ولا يخفى ما في هذه الآية من التشديد على صلة الرحم لمكان التساؤل عن الله وتقواه وقرن الأرحام بذلك، وقرينة الرقابة الإلهية، لذا عدت القطيعة من الكبائر.

وعنه ﷺ: (لا تقطع رحمك وإن قطعتك)[١].

وعنه ﷺ: (صلوا أرحامكم ولو بالتسليم)[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: (صل رحمك ولو بشربة من ماء، وأفضل ما توصل به الرحم كف الأذى عنها)[٣]. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (إن أهل البيت ليجتمعون ويتواسون وهم فجرة فيرزقهم الله، وإن أهل البيت ليتفرقون ويقطع بعضهم بعضاً فيحرمهم الله وهم أتقياء)[٤].

وقطيعة الرحم محرمة حتى لو كان الرحم قاطعاً للصلة تاركاً للواجب كالصلاة والحجاب، فاعلاً للحرام كشرب الخمر بحيث لا يجدي معه الوعظ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بشرط أن لا تكون الصلة له موجبة لتأييده على فعل الحرام وترك الواجب[٥].

فعن الباقر عليه السلام أنه قال: (في كتاب علي ثلاث خصال لا يموت صاحبهن أبداً حتى يرى وبالهن: البغي وقطيعة الرحم واليمين الكاذبة يبارز الله بها...)[٦].

بعض آثار صلة الرحم:

١. عن الرسول الأكرم ﷺ: (إن أعجل الخير ثواباً صلة الرحم)[٧].

١- الكافي: ج٢ ص٢٦٠.

٢- تحف العقول: ص٥٧.

٣- الكافي: ج٢ ص١٥١.

٤- الكافي: ج٢ص٣٤٨.

٥- انظر الفقه للمغتربين: ص١٩٩.

٦- الكافي: ج٢ص٣٤٧.

٧- الكافي: ج٢ص١٥٢.

٢. عن السيدة الزهراء عليها السلام: (فرض الله صلة الأرحام منماة للعدد)[١].

٣. عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: (صلة الأرحام تزكي الأعمال، وتنمي الأموال وتدفع البلوى، وتيسر الحساب وتنسئ في الأجل)[٢] والإنساء في الأجل يعني التأجيل، أي إطالة العمر.

٤. عنه عليه السلام: (صلة الأرحام تُحسن الخلق وتسمح الكف، وتطيب النفس، وتزيد في الرزق، وتنسئ في الأجل)[٣].

٥. وعنه عليه السلام: (إن الرحم معلقة يوم القيامة بالعرش تقول: اللهم صِلْ من وصلني واقطع من قطعني)[٤].

٦. عن الإمام علي الهادي عليه السلام: (لما كلّم الله عز وجل موسى بن عمران عليه السلام قال موسى: إلهي.. ما جزاء من وصل رحمه؟ قال: يا موسى أنسي له أجله وأهون عليه سكرات الموت)[٥].

بعض آثار قطيعة الرحم:

١. قال سبحانه وتعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۞ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾[٦].

٢. عن النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله: (إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم)[٧].

٣. عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (إذا قطعوا الأرحام جُعلت الأموال في أيدي الأشرار)[٨].

٤. عن الإمام الباقر عليه السلام قال: (قال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:

١- البحار: ج٧٤ص١٠٣.
٢- الكافي: ج٢ص١٥٠.
٣- الكافي: ج٢ص١٥٢.
٤- الكافي: ج٢ص١٥٠.
٥- أمالي الصدوق: ص١٧٣.
٦- سورة محمّد: ٢٢ ٢٣.
٧- كنز العمال.
٨- الكافي: ج٢ ص٤٧٢.

حافتا الصراط يوم القيامة الرحم والأمانة، فإذا مر الوصول للرحم المؤدي للأمانة نفذ إلى الجنة وإذا مر الخائن للأمانة القطوع للرحم لم ينفع معهما عمل وتكفأ به الصراط في النار)[١].

٥. عن الإمام الصادق عليه السلام: (الذنوب التي تعجل الفناء قطيعة الرحم)[٢].

فمن ما تقدم تبين أن آثار الصلة والقطيعة لا تخص الفرد فقط، بل هناك عقوبات اجتماعية عامة ينالها القوم المتقاطعون بل والذين فيهم قاطع رحم، بل للقطيعة دخل في الاقتصاد ككون الثروات بأيدي الأشرار، بل على الصحة الاجتماعية، فتنقص معدلات أعمار الناس وعليه فنحن بحاجة لوقفة اجتماعية لمعالجة هذا الداء الوبيل.

صلة القاطع:

من المشاكل العويصة الموجودة في واقع أكثر الناس مَن لهم أرحام يصرّون على قطيعتهم إما بدافع الحسد، أو الغيظ أو الحقد أو غيرها من الأمراض الأخلاقية النفسية، وحتى لو بادر المقطوع إلى الصلة، كان الرد عنيفاً أو جافياً، فيصل المقطوع إلى نتيجة أن لا فائدة من هذا الشخص فإن ذلك من طبعه ومعدنه، فكيف تكون صلة هذا الشخص؟

الجواب: ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: (لا تقطع رحمك وإن قطعتك)[٣]، ولما كان ذلك القريب يجابه الصلة بالقطيعة ويمزيد من الجفاء، ربما لم يبقَ للمؤمن طريقة لأداء الواجب، ولطاعة المولى عز وجل إلا الصلة غير المباشرة، بأن يبعث له السلام مع بقية الأهل والأقارب، أو أصدقاء ذلك القريب الكاشح أو يرسل الصلة لو كانت مالاً، أو هدية، أو حقاً شرعياً، أو صدقة بيد الآخرين ولا يُعلِمون القاطعَ بأنها من فلان المؤمن القريب، وقد روي: أنه كان لعلي بن الحسين عليه السلام ابن عم، وكان الإمام يأتيه بالليل متنكراً فيناوله شيئاً من الدنانير، فيقول ابن العم: لكن علي ابن الحسين لا يواصلني لا جزاه الله خيراً، فيسمع الإمام عليه السلام ذلك منه ويتحمله ويصبر عليه ولا يعرّفه بنفسه، فلما مات علي بن الحسين عليه السلام فقدها، فحينئذ

١- الكافي: ج٢ص١٥٢.

٢- منتخب ميزان الحكمة: ص٢١٥.

٣- الكافي: ج٢ ص٣٤٧.

عَلِم أنه هو، فجاء إلى قبره وبكى عليه[١].

وينبغي أن لا يقنع الواصل بالصلة غير المباشرة، فإذا سنحت فرصة لصلة مباشرة فليبادر لها احتياطاً لنفسه، وطاعة لربه وتأسياً بمواليه محمّد وآل محمّد عليهم السلام.

فعن سالمة مولاة أبي عبد الله عليه السلام قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام حين حضرته الوفاة فأغمي عليه، فلما أفاق قال: أعطوا الحسن بن علي بن الحسين وهو الأفطس سبعين ديناراً، وأعطوا فلاناً كذا وكذا، وفلاناً كذا وكذا. فقلت: أتعطي رجلاً حمل عليك بالشفرة؟ فقال: ويحكِ أما تقرئين القرآن؟ قلت: بلى، قال: أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾[٢][٣].

ثم إن من أوثق عرى القرابة الأبوّة والأمومة، وعليه يكون بر الوالدين من أهم أفراد صلة الرحم، والعقوق من أفظع أفراد القطيعة، والبر والإحسان، والعقوق الإساءة وتضييع الحق.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾[٤] ومما ورد في معنى الإحسان عن أبي ولاد الحناط قال: (سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ما هذا الإحسان؟ فقال: الإحسان أن تحسن صحبتهما وأن لا تكلفهما أن يسألاك شيئاً مما يحتاجان إليه وإن كانا مستغنيَيْن، أليس يقول الله عز وجل: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال: ثم قال: أبو عبد الله عليه السلام وأما قول الله عز وجل: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾ إن ضرباك، وقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾، قال: إن ضرباك فقل لهما: غفر الله لكما فذلك منك قول كريم. قال: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ قال: لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلا برحمة ورقة، ولا ترفع صوتك فوق صوتهما ولا يدك فوق أيديهما

١- انظر كشف الغمة ج٢ ص٣١٨.

٢- سورة الرعد: ٢١.

٣- الكافي: ج٧ ص٥٥. وحمل عليك بالشفرة: أي يريد قتلك.

٤- سورة الإسراء: ٢٣.

ولا تقدم قدامهما)[١].

أما في العقوق فيكفينا هذا الحديث، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (إذا كان يوم القيامة كشف غطاء من أغطية الجنة فوجد ريحها من كانت له روح من مسيرة خمسمائة عام إلا صنف واحد، قلت: مَن هم؟ قال: العاق لوالديه)[٢].

ومما ينبغي التأكيد عليه أمران:

الأول: إن البر بالوالدين غير مشروط بكونهما مؤمنَيْن صالحَيْن بل مطلقاً، فعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: (ثلاث لم يجعل الله عز وجل لأحد فيهن رخصة: أداء الأمانة للبر والفاجر، والوفاء بالعهد للبر والفاجر، وبر الوالدين برَّيْن كانا أو فاجرَيْن)[٣].

الثاني: إن البر لا يجب والعقوق لا يحرم في حياة الوالدين فقط بل حتى وبعد مماتهما فلقد جاء عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: (إن العبد ليكون باراً بوالديه في حياتهما ثم يموتان، فلا يقضي عنهما ديونهما ولا يستغفر لهما فيكتبه الله عاقاً، وإنه ليكون عاقاً لهما في حياتهما غير بار بهما فإذا ماتا قضى دَيْنهما واستغفر لهما فيكتبه الله عز وجل باراً)[٤].

قوله عليه السلام:

(وحب المساكين ومجالستهم)

الذي يبدو من النصوص الشريفة أن هناك مزية شرعية لحب المساكين ومجالستهم ومعاشرتهم سيما بعد ملاحظة تبعية الأوامر والنواهي الدينية للمصالح والمفاسد.

فقد جاء الأمر بحب المساكين في كثير من الأحاديث الشريفة، وسؤال ذلك الحب في الأدعية الواردة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وجعل ذلك العمل محصلاً للتقرب منه عز وجل هذا من جهة الحب للمساكين، أما من جهة حب المساكين لغيرهم

١- الكافي: ج٢ص١٥٨.

٢- الكافي: ج٢ص٣٤٨.

٣- الكافي: ج٢ص١٦٢.

٤- الكافي: ج٢ص١٦٣.

فقد جاء أنه من المواهب الإلهية التي حُبي بها أمير المؤمنين عليه السلام، وإليك بعض هذه النصوص:

١. عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أمرني ربي بسبع خصال: حب المساكين والدنوّ منهم، وأن أُكثِر من لا حول ولا قوة إلّا بالله، وأن أصِل برحمي وإن قطعني، وأن أنظر إلى مَن أسفل مني ولا أنظر إلى مَن هو فوقي، وأن لا يأخذني في الله لومة لائم، وأن أقول الحق وإن كان مُراً وأن لا أسأل أحداً شيئاً)[١].

٢. عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه كان يدعو فيقول: (اللهم إنّي أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت في الناس فتنة فاقبضني إليك غير مفتون)[٢].

٣. عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: (نور الحكمة الجوع، والتباعد من الله الشبع، والقربة إلى الله حب المساكين والدنو منهم)[٣].

٤. عن الإمام الصادق عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السلام: قال: (قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله على منبره: يا علي إن الله عز وجل وهب لك حب المساكين والمستضعفين في الأرض فرضيت بهم إخواناً ورضوا بك إماماً، فطوبى لمن أحبك وصدق عليك، وويل لمن أبغضك وكذب عليك)[٤].

وهذه المزية والمحبوبية الشرعية ربما تكون في ذات حب المساكين وأنها طاعة وقربة ويشهد له ما روي: إن الله تعالى أوحى إلى إسماعيل عليه السلام: (اطلبني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، قال: ومَن هم؟ قال: الفقراء الصادقون)[٥].

وربما تكون لما يصاحب ذلك الحب من معرفة بالتوزيع الإلهي للبلاء، وإن من الممكن أن يكون الشخص المحب للمساكين بدل هذا المسكين، ولما في الحب لهم والمجالسة من تواضع لله سبحانه وتعالى، أو بكونه باعثاً لشكر المولى عز وجل على

١- الأصول الستة عشر: ص٧٥.

٢- الموطأ: ج١ص٢١٨.

٣- البحار: ج٦٣ص٣٣١.

٤- أمالي الصدوق: ص٦٥٥.

٥- المحجة البيضاء: ج٧ ص٣٢٥.

منه ونعمه وغير ذلك.

إن هذا الخُلق مما كان يتصف به قادة الدين عليهم السلام فمما روي في ذلك أن الإمام الحسن بن علي عليه السلام اجتاز بالمدينة في طريق وهو راكب فرأى جماعة من المساكين وقد أخرجوا كسراً يابسة وهم يأكلونها، فسلم عليهم فقالوا: هلم يا ابن رسول الله إلى الغداء، فنزل عليه السلام وجلس معهم على الأرض وشاركهم في الأكل حتى فرغوا، ثم قام[1].

قوله عليه السلام:

(والتواضع فإنه من أفضل العبادة)

التواضع صفة في النفس لا يستعظم معها الإنسان نفسه، ولا يحتقر الآخرين لأنها ضد التكبر، والتواضع ينشأ من معرفة قدر النفس، وعظمة الله عز وجل فعن أمير المؤمنين عليه السلام: (لا ينبغي لمن عرف عظمة الله عز وجل أن يتعظم، فإن رفعة الذين يعلمون ما عظمةُ الله أن يتواضعوا له)[2].

والتكبر صفة لا تناسب الإنسان بحال، وليست هي من شأنه، لضعفه وحاجته، وحقارته بالنسبة إلى مولاه، فلو فرضنا أن نملة تكبّرت وتعالت في حضرة بشر لكان ذلك ممقوتاً ومستهجناً غاية الاستهجان، فكيف بمن هو أقل وأذل من النملة بالنسبة لله تعالى الذي لا يوصف عظمة وجبروتاً وقدرة وهيبة.

والكبرياء رداء الله تعالى ولا يحب أن ينازع في ردائه فعن الإمام الباقر عليه السلام: (الكبر رداء الله، والمتكبر ينازع الله في ردائه)[3].

ثمة صفات إلهية يحب تعالى أن يتصف بها خلقه كالكرم والرحمة والصبر، وهناك صفات لا يحب فيها ذلك كالتكبر والاستعلاء.

وربما يتكبر الإنسان لعلم عنده، أو للحسب والنسب، أو للجاه، أو للقوة أو

١- مناقب آل أبي طالب: ج٤ ص٢٣.

٢- منتخب ميزان الحكمة: ص٥٣٧.

٣- الكافي: ج٢ص٣٠٩.

الجمال أو للمال والثروة...

فإن كان للعالِم فليعلم أنه جاء عنه ﷺ: (من ازداد علماً ولم يزددْ هدى لم يزددْ من الله إلاّ بُعداً)[١]، ولا ريب أن التواضع من الهدى: وأن العلم رزق معنوي، فهو نعمة تستدعي الشكر، وليس التعالي والمنازعة، وأن حجة الله على أهل العلم أوكد لذلك، شبّهَ سبحانه اليهود العصاة من حَمَلة العلم بالحمار قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[٢]، فهم كالحمار الذي يحمل الكتب القيمة، وشبّهَ بلعم بن باعورا بالكلب حيث قال: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[٣].

وإن كان بالحسب والنسب، فهو غباء وجهل لأنه تعالٍ وتعزز بكمال غيره، ولنعم ما قيل:

لَإنْ فَخَرْتَ بآباءٍ ذَوي شَرَفٍ
لقد صدَقْتَ ولكن بِئْسَ ما وَلَدُوا

وإن كان بالجاه كالوظيفة الرفيعة مثلاً فهذا له اليوم ولغيره غداً والدنيا دول، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[٤] ثم إنها نعمة منه تعالى.

وإن كان بالجمال فلينظر إلى بواطن جسده فالأقذار في جميع أجزائه، كالرجيع والبول والمخاط، البصاق والشمع، وعليه أن يتأمل في ما بعد موته لو بقي بلا تجهيز ودفن لفرّ الناس من عفونته، روي أن زليخا قالت ليوسف يوماً: (ارفع طرفك وانظر إليّ، قال: أخشى العمى على بصري، قالت: ما أحسن عينيك! قال: هما أول ساقط على خدي في قبري، قالت: ما أحسن طيب ريحك! قال: لو شممت رائحتي بعد ثلاث من موتي لهربت مني! قال: لم لا تقترب؟ قال: أرجو بذلك

١- بحار الأنوار: ج٢ص٣٧

٢- سورة الجمعة: ٥.

٣- سورة الأعراف: ١٧٦.

٤- سورة آل عمران: ١٤٠.

القرب من ربي...)[١].

وإن كان بالقوة والأعوان فليتذكر ما تسلط عليه من العلل والأمراض والموت. وأما إذا كان التكبر بالمال فهذا أقبح أنواع التكبر لأنه بمعنى خارج عن الذات.

وعليه فالتواضع هو اللائق بالإنسان، وأن لا يرى لنفسه على غيره علواً ولا فضلاً.

قال رجل لآخر علّمني التواضع، فقال: إذا رأيت مَن هو أكبر منك فقل: سبقني إلى الإسلام والعمل الصالح فهو خيرٌ مني، وإذا رأيت مَن هو أصغر منك فقل سبقته إلى الذنوب والعمل السيء فأنا شرٌّ منه)[٢].

وينبغي أن يكون التواضع لله عز وجل حتى يكون عبادة مقرّبة لأن الأعمال بالنيات.

ثم إن التواضع حال بين التكبر والتخاسس فهو ليس بممدوح مطلقاً فلا يتواضع مع الأغنياء لغناهم لقول أمير المؤمنين عليه السلام: (مَن أتى غنياً فتواضع له لغناه ذهب ثلثا دينه)[٣]،ولا للسلاطين لقول الإمام الصادق عليه السلام: (أيما مؤمن خضع لصاحب سلطان أو من يخالطه على دينه طلباً لما في يديه من دنياه أخمله الله ومقته عليه ووكله إليه...)[٤].

ولا يتم الكلام ويحسن إلاّ بذكر روايات في التواضع:

١. عن النبي صلى الله عليه وآله: (مَن تواضع لله رفعه الله فهو في نفسه ضعيف وفي أعين الناس عظيم، ومن تكبّر وضعه الله، فهو في أعين الناس صغير وفي نفسه كبير، حتى لهو أهون عليهم من كلبٍ أو خنزير)[٥].

٢. عن الإمام الصادق عن آبائه عليهم السلام: (إن من التواضع أن يرضى الرجل بالمجلس

١- قصص الأنبياء: ص١٨٩.

٢- الأخلاق والآداب الإسلامية: ص٢٣٢.

٣- منتخب ميزان الحكمة: ص٥٣٦.

٤- الكافي: ج٥ص١٠٦.

٥- منتخب ميزان الحكمة: ص٥٣٦.

دون المجلس، وأن يسلم على من يلقى، وأن يترك المراء وإن كان محقاً، ولا يحب أن يحمد على التقوى)[٦].

٣. عن الإمام الكاظم عليه السلام: (إن الله لم يرفع المتواضعين بقدر تواضعهم ولكن رفعهم بقدر عظمته ومجده)[٧].

٤. عن الإمام الرضا عليه السلام: (التواضع أن تعطي الناس ما تحب أن تُعطاه)[٨].

قوله عليه السلام:

(وقصر الأمل)

الأمل لغة: الرجاء[٩]، وأكثر ما يستعمل فيما يستبعد حصوله، وقيل: إنه يكون في الممكن والمستحيل، والظاهر أن المراد به لو جاء في النصوص الشريفة ميل القلب إلى البقاء وحصول المرغوبات منشؤه الذهول عن الآخرة، قال سبحانه: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[١٠].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (الأمل سلطان الشياطين على قلوب الغافلين)[١١].

إذا عرفت هذا فاعلم أن هناك روايات استحسنت الأمل، منها ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله: (الأمل رحمة لأمتي، ولولا الأمل ما أرضعت والدة ولدها، ولا غرس غارس شجراً)[١٢].

وروي: (بينما عيسى بن مريم عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة ويثير الأرض، فقال عيسى عليه السلام: اللهم انزع عنه الأمل، فوضع الشيخ المسحاة واضطجع، فلبث ساعة، فقال عيسى عليه السلام: اللهم ارْدُدْ إليه الأمل، فقام فجعل يعمل)[١٣].

٦- نفس المصدر.

٧- نفس المصدر.

٨- الكافي: ج٢ص١٢٤.

٩- الصحاح: ج٤ ص١٦٢٧.

١٠- سورة الحجر: ٤.

١١- منتخب ميزان الحكمة: ص٢٨.

١٢- نفس المصدر: ص٢٨.

١٣- نفس المصدر: ص٢٨.

وروايات ذمت الأمل منها ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: (اتقوا باطل الأمل، فرُبّ مستقبل يوم ليس بمستدبره، ومغبوط في أول ليلة قامت بواكيه في آخره)[١].

يُفهم من ذلك أن هناك حصة خاصة هي المذمومة وهي الأمل الطويل، أما الأمل القصير الذي لا يؤثر على عمل نافع سواء كان دنيوياً أو أخروياً فهذا لا بد للإنسان منه، وبتعبير أوضح: إن الأمل القصير الذي لا يحول بين الإنسان وبين أداء وظائفه الدينية بل والدنيوية ليس به بأس بل لا يستطيع الإنسان إكمال دراسته والحصول على شهادة، ولا بناء بيته، ولا تربية أولاده وإجمالاً لا يستطيع عمارة الأرض بلا أمل، شريطة أن لا يثبط من عزم الإنسان في أداء وظائفه تجاه ربه سبحانه، فلو كان عند الإنسان خطة عمل يومي كأداء الفرائض في أول وقتها ووجوبها، والإتيان ببعض النوافل وقضاء مقدار من الفوائت، وأذكار وتلاوة ودعاء وزيارة ولا يقف أمله في الدنيا وحبه للبقاء حائلاً دون أداء ذلك فلا مشكلة فيما عنده من أمل، لذلك عبّر الإمام عليه السلام في الوصية بـ(قصر الأمل)، وجاء عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لابن مسعود: (قَصِّرْ في الدنيا أَمَلَك، فإذا أصبحت فقل إني لا أمسي، وإذا أمسيت فقل إني لا أصبح، واعزم على مفارقة الدنيا، وأحب لقاء الله)[٢].

أسباب طول الأمل:

لطول الأمل سببان:

الأول:

حب الدنيا، وللشيخ البهائي العاملي كلام واف في هذا المجال هذا نصه: (وسبب طول الأمل هو حب الدنيا، فإن الإنسان إذا آنس بها وبلذاتها ثقل عليه مفارقتها وأحب دوامها فلا يتفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، فإنّ مَن أحبّ شيئاً كره الفكر فيما يزيله ويبطله، فلا يزال يمنّي نفسه البقاء في الدنيا ويقدر

١- نفس المصدر: ص٢٨.

٢- المنتخب: ص٢٨.

حول ما يحتاج إليه من أهل ومال وأدوات وأسباب ويصير فكره مستغرقاً في ذلك، فلا يخطر الموت بخاطره، وإن خطر بباله الموت والتوبة والإقبال على الأعمال الأخروية أخّر ذلك من يوم إلى يوم، ومن شهر إلى شهر، ومن سنة إلى سنة، وقال إلى أن أكتهل ويزول سن الشباب، فإذا اكتهل قال إلى أن أصير شيخاً، فإذا شاخ قال: إلى أن أتمم عمارة هذه الدار، أو أزوج ولدي الفلاني، أو إلى أن أرجع من هذا السفر، وهكذا يؤخر التوبة من شهر إلى شهر وسنة بعد سنة، وكلما فرغ من شغل عرض له شغل بل أشغال حتى يختطفه الموت وهو غافل عنه غير مستعد له، مستغرق القلب في أمور الدنيا، فتطول في الآخرة حسرته، وتكثر ندامته، وذلك هو الخسران المبين، نعوذ بالله منه)[١]. وهذا الحب إنما يُزال بمعرفة حقيقة الدنيا ومآلها وهو من أوضح الواضحات، وجاء في هذا المعنى عن أمير المؤمنين عليه السلام: (مَن أيقن أنه يفارق الأحباب، ويسكن التراب، ويواجه الحساب، ويستغني عما خلف، ويفتقر إلى ما قدم، كان حرياً بقصر الأمل، وطول العمل)[٢].

الثاني:

الجهل بالآخرة وما يحدث فيها، أو الغفلة عن ذلك، وهذا يُزال بالعلم والمعرفة، أو الاستماع والاتّباع للعلماء والوعاظ المخلصين والاقتداء بهم، وعدم التعالي على العلم والعلماء، ومن الجهل استبعاد الموت في الشباب أو الصحة والقوة، وليس يتفكر هذا المستبعد لقرب النهاية أن مشايخ البلد من أقل الفئات العمرية في المجتمع وما قلوا إلّا لأن الموت في الشباب أكثر، وإلى أن يموت شيخ يموت الكثير من الشباب والصبيان والواقع ببابك: فعن الإمام علي عليه السلام أنه قال: (لو رأى العبد أجله وسرعته إليه أبغض الأمل)[٣].

١- الأربعون حديثاً: ص٣٠٧.

٢- منتخب ميزان الحكمة: ص٢٨.

٣- المنتخب: ص٢٩.

آثار طول الأمل:

ومن آثار طول الأمل قسوة القلب، والتقصير في العمل، ونسيان الآخرة...

ففي الكافي: (فيما ناجى الله عز وجل موسى عليه السلام: يا موسى لا تطول في الدنيا أملك فيقسو قلبك والقاسي القلب مني بعيد)[١].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (من اتسع أمله، قَصُرَ عمله)[٢].

وعنه عليه السلام: (أما طول الأمل فينسي الآخرة)[٣].

قوله عليه السلام:

(وذكر الموت)

والكلام هنا يقع في أمور:

الأول: في حقيقة الموت:

وهو ما يضاد الحياة، فهو زوال الحياة ممن اتصف بها [٤] هذا في اللغة، أما حقيقة الموت فهو خروج الروح من الجسد، وفكّ الارتباط بينهما أو انفصال الروح عن الجسد المادي، فيفقد الجسد بسبب ذلك آثار الحياة من نمو وإحساس وقدرة فالجسد بمنزلة الآلة للروح.

وليس الموت بطلاناً وانعداماً كما عند الماديين الذي لا يؤمنون بما وراء الطبيعة، بل هو عبور وانتقال من عالم إلى عالم ومن حياة لحياة وبالموت تنتقل الروح وتلتحق بعالم مسانخ لها ينسجم مع كُنهها وحقيقتها.

وكيفية هذا الانفصال لا يعلمه إلّا الله عز اسمه لأنه متوقف على العلم بالروح وهو غير مقدور.

والموت فعل الله سبحانه وتعالى لقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[٥] وهو مخلوق

١- الكافي: ج٢ص٣٢٩.

٢- المنتخب: ص٢٩.

٣- الكافي: ج٢ص٣٣٩.

٤- اقرب الموارد: ج٢ ص١٢٥٠.

٥- سورة الزمر: ٦٨.

لله تعالى كما الحياة، فهو أمر وجودي لا عدمي، فللموت دوره كما الحياة، وليس هو مجرد إفناء وعدم بل هو مرحلة يمر بها الإنسان بعد مرحلة الحياة، بعدها البرزخ، والقيامة، والجنة أو النار أجارنا تعالى منها.

وما تقدم يستفاد من التأمل في الآيات القرآنية والنصوص الحديثية وإليك بعضها:

١. قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١]، فهو سبحانه يقبض الأنفس في حال الموت وفي حال النوم فما قضى عليها بالموت أمسكها ولم يردها إلى الجسد، وما لم يقض عليها بالموت ردها للجسد وأرسلها إلى حين انقضاء أجلها المسمى، ولا شك أن هناك فارق بين أخذ الأنفس حال النوم وأخذها حال الموت فسبحانه ما أعظم شأنه.

٢. قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٢].

٣. عن الإمام محمد بن علي عليه السلام: (قيل لعلي بن الحسين عليه السلام: ما الموت؟ قال: للمؤمن كنزع ثياب وسخة قملة وفك قيود وأغلال ثقيلة والاستبدال بأفخر الثياب وأطيبها روائح وأوطأ المراكب وآنس المنازل، وللكافر كخلع ثياب فاخرة والنقل عن منازل أنيسة والاستبدال بأوسخ الثياب وأخشنها وأوحش المنازل وأعظم العذاب)[٣].

٤. قال علي بن الحسين عليه السلام: (لما اشتد الأمر بالحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام نظر إليه من كان معه فإذا هو بخلافهم لأنهم كلما اشتد الأمر تغيرت ألوانهم وارتعدت فرائصهم ووجبت قلوبهم وكان الحسين عليه السلام وبعض من معه من خصائصه تشرق ألوانهم وتهدئ جوارحهم وتسكن نفوسهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا لا يبالي بالموت!. فقال لهم الحسين عليه السلام: صبراً بني الكرام، فما الموت إلاّ قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضراء إلى الجنان الواسعة والنعيم

١- سورة الزمر: ٤٢.

٢- سورة الملك: ٣.

٣- معاني الاخبار: ص٢٨٩.

الدائمة، فأيكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر، وما هو لأعدائكم إلّا كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب، إن أبي حدثني عن رسول الله ﷺ: إن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر والموت جسر هؤلاء إلى جناتهم وجسر هؤلاء إلى جحيمهم، ما كذبت ولا كذبت)[١].

٥. وعن الإمام محمد بن علي عن أبيه عليه السلام قال: (دخل موسى بن جعفر عليهما السلام على رجل قد غرق في سكرات الموت وهو لا يجيب داعياً فقالوا له: يا ابن رسول الله وددنا لو عرفنا كيف الموت وكيف حال صاحبنا؟ فقال: الموت هو المصفاة يصفي المؤمنين من ذنوبهم فيكون آخر ألم يصيبهم كفارة آخر وزر بقي عليهم، ويصفي الكافرين من حسناتهم فيكون آخر لذة أو راحة تلحقهم، وهو آخر ثواب حسنة تكون لهم، وأما صاحبكم هذا فقد نخل من الذنوب نخلاً وصفي من الآثام تصفية، وخلص حتى نُقي كما ينقى الثوب من الوسخ وصلح لمعاشرتنا أهل البيت في دارنا دار الأبد)[٢].

٦. عن الإمام الكاظم عليه السلام عن أبيه الصادق عليه السلام قال: (الدنيا سجن المؤمن، والقبر حصنه، و الجنة مأواه، والدنيا جنة الكافر، والقبر سجنه، والنار مأواه)[٣].

الثاني: في ضرورة الموت للحياة:

لا تصلح الحياة إلّا بالموت، فلولاه لتحولت إلى جحيم ولما وجد أحد موطأ قدم يعيش عليه في الأرض، ولفقدت كل لذة وبهجة في الحياة، ولتبدد كل جمال فلنتصور أن الآباء والأجداد إلى آخر السلسلة موجودون فكيف تكون صورة الحياة، وكيف يكون العيش عليها.

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: (إن قوماً فيما مضى قالوا لنبي لهم: ادعُ لنا ربك يرفع عنا الموت، فدعا لهم فرفع الله عنهم الموت فكثروا حتى ضاقت عليهم المنازل وكثر النسل وصار الرجل يطعم أباه وجده وأمه وجد جده ويرضيهم ويتعاهدهم فشغلوا

١- نفس المصدر: ص٢٨٩.

٢- معاني الأخبار: ص٢٨٩.

٣- الخصال: ص١٠٨.

عن طلب المعاش، فقالوا: سل لنا ربك أن يردنا إلى حالنا التي كنا عليها، فسأل نبيهم ربه فردهم إلى حالهم)[١].

فالموت كما هو ضروري للآخرة ضروري للمعاش، بل هو زينة للحياة لولاه لكانت قاتمة باهتة لذلك وصفه سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام بقوله: (خُطَّ الموت على ولد آدم مَخَطَّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب ليوسف...)[٢]، فالموت كالقلادة التي تزين عنق الفتاة بالنسبة للدنيا.

وقيل إن المنصور العباسي قال للربيع بن يونس وزيره: ما أطيب الدنيا لولا الموت! قال: يا أمير.. ما طابت إلّا بالموت، قال: وكيف؟ قال: لولا الموت لم تقعد هذا المقعد[٣].

وقال له المنصور لما حضرته الوفاة: يا ربيع بعنا الآخرة بنومة[٤]، أي الدنيا أشبه بالحلم أو الغفوة مع ذلك بعنا الدار الباقية بها.

الثالث: في ذكر الموت:

إن الناس مع ذكر الموت على أصناف، صنف يبغض الموت ولا يحب ذكره لتعلقه بالحياة وعشقه لها ولانهماكه في المعاصي وغوره في الشهوات ولغفلته عما أريد به، وعن الآخرة.

ومثل هذا لو ذكر الموت إنما يذكره ليذمه لأنه قاطع لعلاقته مع محبوبه، هادم للذاته مبدد لأحلامه، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: (جاء رجل إلى أبي ذر فقال: يا أبا ذر ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم عمرتم الدنيا وأخربتم الآخرة فتكرهون أن تنقلوا من عمران إلى خراب، فقال: فكيف ترى قدومنا على الله؟ فقال: أما المحسن منكم فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء منكم فكالآبق يرد إلى مولاه، فقال: فكيف ترى حالنا عند الله؟ قال: اعرضوا أعمالكم على الكتاب، إن الله يقول: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ قال فقال الرجل: فأين رحمة الله؟

١- الكافي: ج٣ص٢٦٠.

٢- بحار الأنوار: ج٤٤ص٣٦٦.

٣- سير أعلام النبلاء: ج٧ص٣٣٥.

٤- وفيات الاعيان: ج٢ص٩٥.

قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١])[٢].

ومثل هذا يفر من الموت قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣].

ومثله يدخل في قوله ﷺ: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه)[٤].

والنصف الآخر يذكر الموت ليبعثه على الخوف والخشية من ربه سبحانه وتعالى، وليفي بتوبته، وليعمل بما يرضي مولاه، وليستعد للموت وما بعد الموت من عقبات كؤود، ومثل هذا يعبر عنه علماء الأخلاق بالتائب المبتدئ، وربما لا يحب الموت ويتمنى بُعد منيته لأنه يظن أنه مقصر في عمله تجاه ربه، ولما يقض ما عليه بعد، ومثله لا يدخل تحت الذين لا يحبون لقاء الله تعالى، لأنه يريد أن يكون لائقاً بذلك اللقاء.

عن عجلان أبي صالح، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: (يا أبا صالح إذا أنت حملت جنازة فكن كأنك أنت المحمول، وكأنك سألت ربك الرجوع إلى الدنيا ففعَل، فانظر ماذا تستأنف، قال: ثم قال: عجباً لقوم حبس أولهم عن آخرهم ثم نودي فيهم بالرحيل وهم يلعبون)[٥].

والصنف الثالث يكثر ذكر الموت بل ينتظره بفارغ الصبر لأن فيه لقاء الحبيب الرؤوف الرحيم، وهو الذي قضى ما عليه، أحسن العمل واستعد في مدة الأجل ومن شدة محبة مولاه استولى عليه حسن الظن به.

روي أن حذيفة بن اليمان لما حضرته الوفاة قال: (حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم)[٦]، وروي عنه أنه قال بعد ذلك: (اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إليّ من الغنى، والسقم أحب إليّ من الصحة، والموت أحب إليّ من الحياة فسهّل

١- سورة الأعراف: ٥٦.

٢- الكافي: ج٢ص٤٥٨.

٣- سورة الجمعة: ٨.

٤- مستدرك الوسائل: ج٢ ص١٠٦

٥- الكافي: ج٣ص٢٥٨.

٦- كنز العمال: ج١٢ص٣٤٦.

عليّ الموت حتى ألقاك)[١].

ومهما يكن من أمر.. فذكر الموت مما ندب إليه الشرع المقدس لما فيه من آثار جليلة، فإن في ذكره اتعاظاً، ومنعاً للنفس من الشهوات المحرمة، واستعداداً للموت بالتوبة ورد المظلمة والوصية وصنيعة المعروف وعمل الطاعة، فإنه سبحانه جعل الموت من الغيب حيث قال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٢] فعدم العلم بنزول الموت يدعو لأخذ الأهبة له، ثم إن ذكر الموت يُزهد في الدنيا، فعن أبي عبيدة قال: (قلت لأبي جعفر عليه السلام: حدثني ما أنتفع به فقال: يا أبا عبيدة أكثر ذكر الموت فإنه لم يكثر ذكره إنسان إلّا زهد في الدنيا)[٣]، ويوجب حب الله تعالى، فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في حديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (من أكثر ذكر الموت أحبه الله)[٤] لما فيه من الفضائل، فعن النبي صلى الله عليه وآله: (أفضل الزهد في الدنيا ذكر الموت، وأفضل العبادة ذكر الموت، وأفضل التفكر ذكر الموت، فمن أثقله ذكر الموت وجد قبره روضة من رياض الجنة)[٥].

وقد تسأل بعد كل هذا كيف يستعد المرء للموت؟ والجواب نأخذه ممن كان لا يبالي وقع الموت عليه أم وقع هو على الموت وهو أمير المؤمنين وسيد المستعدين تالي تلو النبي صلى الله عليه وآله حين سُئل عن الاستعداد للموت فأجاب: (أداء الفرائض، واجتناب المحارم، والاشتمال على المكارم، ثم لا يبالي أوقع على الموت، أم وقع الموت عليه، والله ما يبالي ابن أبي طالب أوقع على الموت أم وقع الموت عليه)[٦].

١- جامع السعادات: ج٣ص٣٤.

٢- سورة لقمان: ٣٤.

٣- الكافي: ج٣ص٢٥٥.

٤- وسائل الشيعة: ج٢ص٤٣٤.

٥- مستدرك الوسائل: ج٢ص١٠٤.

٦- أمالي الصدوق: ص٩٧؛ ومنتخب ميزان الحكمة: ص٤٦٩.

قوله عليه السلام:

(والزهد)

الزهد خلاف الرغبة[1]، قال سبحانه: ﴿كَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[2] أي غير الراغبين، وعندما يطلق الزهد في النصوص الدينية يراد منه عدم الرغبة في الدنيا.

قد يقول قائل: إن الحديث عن الزهد والدعوة إليه في هذا الزمن زمن التوسع والتمتع والتمدن والتحضر ضرب من الخيال، أليس الزهد ترك التجمل والجيد من الثياب، والطيب من الطعام والفاره من المساكن والمراكب... وأنى يكون ذلك!.

فإنه يقال: إن هذا الفهم للزهد غير دقيق، فمعنى الزهد ما جاء في الكتاب الكريم بقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[3] فهو أن لا تحزن على المفقود من عرض الدنيا ولا تفرح منها بالموجود بل تثق أن ما زوي عنك لحكمة ومصلحة، وما أعطيت فهو نعمة تستحق الشكر، فعن الإمام الصادق عليه السلام: (ليس الزهد بإضاعة المال، ولا تحريم الحلال بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما عند الله عز وجل)[4].

فالزهد ليس أن تتجرد من الملكية بل أن لا تكون عبداً للعقارات والسيارات والمقتنيات والأموال والرئاسات والوجاهات.

مثلاً لو رزق المرء سيارة شكر الله تعالى، وانتفع بها، ولو لم يرزق رضي ولم يحزن، فربما يكون ذلك لحكمة ومصلحة، فقد جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: (الزهد في الدنيا قصر الأمل، وشكر كل نعمة، والورع عن كل ما حرم الله عز وجل)[5].

نعم إن للزهد مراتب أرقى من هذه المرتبة كترك الفضول من المعاش والزينة الزائدة

١- الصحاح: ج٣ ص٤٨١.

٢- سورة يوسف: ٢٠.

٣- سورة الحديد: ٢٣.

٤- الكافي: ج٥ ص٧٠.

٥- الكافي: ج٥ ص٧١.

عن المندوب شرعاً، ويكون بترك بعض الحلال مقدمة لعدم الوقوع في المحذور الشرعي، ولهذه المراتب أهلٌ كالأنبياء والأوصياء والصلحاء ومن الفضيلة الاقتداء بهم ولو بمقدار.

وبالجملة فالزهد من أفضل الفضائل لأنه لا يكون إلّا بعد معرفة نقص الدنيا، وقدر الآخرة وكمالها، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: (أحق الناس بالزهادة من عرف نقص الدنيا)[١]، وعنه عليه السلام: (كيف يزهد في الدنيا من لا يعرف قدر الآخرة)[٢].

وبالزهد يصل الإنسان مبتغاه من الراحة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (الزهد في الدنيا الراحة العظمى)[٣] لأنه يهون مصائب الدنيا وبه يجد الإنسان حلاوة الإيمان، وهي مطلوب ذوي النفوس العالية لقول الإمام الصادق عليه السلام: (حرام على قلوبكم أن تعرف حلاوة الإيمان حتى تزهد في الدنيا)[٤]، بل جعل الزهد مفتاح كل خير، قال الإمام الصادق عليه السلام: (جعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا)[٥].

قوله عليه السلام:

(فإنك رهين موت، وغرض بلاء، وطريح سقم)

بعد أن أوصى عليه السلام بقصر الأمل، وذكر الموت، والزهد في الدنيا عقب معللاً بقوله (فإنك رهين موت).

والرهين المرهون، وهو ما يطلق عليه الرهن وهو في اللغة عبارة عن وضع شيء عند شخص ليكون نائباً عما أخذ منه[٦]، ويطلق أيضا على الحبس قال سبحانه:

١- منتخب ميزان الحكمة: ص٢٣٢.

٢- نفس المصدر: ص٢٣٤.

٣- منتخب ميزان الحكمة: ص٢٣٢.

٤- نفس المصدر: ص٢٣٢.

٥- نفس المصدر: ص٢٣١.

٦- انظر القاموس المحيط: ج٤ ص٣٢٧.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[١]، أي محبوسة بما كسبته من خير أو شر.

وفي عرف الفقهاء هو وثيقة لدين المرتهن، فمن أقرض شخصاً له أن يأخذ على ذلك رهناً ليطمئن على ماله، ويسمى المقرض المرتهن، والمدين بالراهن والمال الموضوع بدل الدين بالرهن، وللراهن الذي هو المدين أن يُرجّع الرهن إليه متى وفى بدينه.

وللمرتهن بيع الرهن ووفاء دينه متى ما لم يفِ الراهن بدَيْنه، والإمام عليه السلام استعار هذا المعنى ونزل الإنسان منزلة الرهن عند المرتهن الذي هو الموت فعما قريب يتصرف فيه ويأخذه ولا يخفى ما في هذا التنزيل من بلاغة.

(وغرض بلاء): الغرض: الهدف، كان الرماة بالسهم وبالرمح يضعون هدفاً ويرمون نحوه دربةً وتمريناً، والآن بالبندقية وغيرها من آلات الرمي الحديثة، هذا الهدف يسمى غرضاً.

والبلاء: أصله الاختبار والامتحان، ويكون بالخير وبالشر، قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[٢] ولكون الاختبار تارة يكون بالشر وتارة يكون بالخير يطلق البلاء على الشدة والمكروه والمحنة، قال سبحانه: ﴿وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[٣] إشارة لذبح الأبناء، واستحياء النساء، ويحتمل غير ذلك من المناسبات المصححة لإطلاق البلاء على الشدة.

فلسفة البلاء:

البلاء سُنّة إلهية جعلها سبحانه في خلقه، لا يقتصر على الأفراد بل يكون حتى مع المجتمعات، ونوع وطريقة الابتلاء بحسب ما يصدر من الناس من أعمال، وله علل وحكم مختلفة، وكل هذا يعرف من النصوص الكريمة آيات وروايات، ومن علله وحكمه:

١. لتمييز المحسن من المسيء، قال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ

١- سورة المدثر: ٣٨.

٢- سورة الأنبياء: ٣٥.

٣- سورة البقرة: ٤٩.

أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[١]، وهذا الاختبار لا عن جهل بعباده ومكنونات صدورهم، ولكن ليصح الثواب والعقاب، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: (إلّا أن الله تعالى كشف الخلق كشفة لا عن جهل ما أخفوه من مصون أسرارهم ومكنون ضمائرهم، ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، فيكون الثواب جزاءً، والعقاب بواءً)[٢].

٢. لحماية المؤمن من آفات التعلق بالدنيا، وهذا يستفاد مما جاء عن الباقر عليه السلام: (إن الله عز وجل ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالهدية من الغَيْبة، ويحميه الدنيا كما يحمي الطبيب المريض)[٣].

٣. ليتوب الناس، ويتذكروا ويرجعوا لربهم سبحانه وتعالى: قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[٤]، وقد خرج أمير المؤمنين عليه السلام يوماً للاستسقاء فقال: (إن الله يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات، وحبس البركات، وإغلاق خزائن الخيرات ليتوب تائب، ويتذكر متذكر، ويزدجر مزدجر)[٥].

٤. لمغفرة الذنوب وتخليص المؤمن من تبعاتها كما جاء عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: (الحمد لله الذي جعل تمحيص ذنوب شيعتنا في الدنيا بمحنتهم، لتسلم بها طاعتهم، ويستحقوا عليها ثوابها)[٦].

٥. لرفع الدرجات، وهذا يعلم من حديث جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: (إنه ليكون للعبد منزلة عند الله فما ينالها إلاّ بإحدى خصلتين: إما بذهاب ماله، أو ببليةٍ في جسده)[٧].

وقد لا تحصر حكم وعلل البلاء بما ذكر فقد تكون هناك أسباب أخرى، لكن

١- سورة الملك: ٢.

٢- نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد: ج٩ ص٧٤.

٣- الكافي: ج٢ ص٢٥٥.

٤- سورة الأعراف: ١٣.

٥- نهج البلاغة الخطبة ١٤٣.

٦- بحار الأنوار/للمجلسي: ج٦٤ ص٢٣٢.

٧- الكافي: ج٢ ص٢٥٧.

هناك أمراً لا يجب أن يغفل عنه وهو أن الذنوب والمعاصي من أهم أسباب البلاء الفردي والاجتماعي، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[١]، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أوحى الله تعالى إلى أيوب هل تدري ما ذنبك إليّ حين أصابك البلاء؟ قال: لا، قال: إنك دخلت على فرعون فداهنت بكلمتين)[٢].

(وطريح سقم): أي مطروح للمرض ذليل عنده، فالطرح الرمي[٣]، فيكون المعنى أن المرض يرميك ويتمكن منك غاية التمكن، ومن كان هذا حاله حري به التواضع وذكر الموت والزهد في الدنيا.

ثم إنه جاء عن النبي ﷺ: (لولا ثلاثة في ابن آدم ما طأطأ رأسه شيء: المرض والموت والفقر، وكلهن فيه وإنه لمعهن وثاب)[٤].

قوله عليه السلام:

(وأوصيك بخشية الله في سرّ أمرك وعلانيتك)

هنا أوصى أمير المؤمنين عليه السلام بحصة خاصة من الخوف منه تعالى وهي الخشية، وأحسن ما أفيد في هذا المعنى كلام للمحقق الطوسي في بعض مؤلفاته هذا حاصله: (إن الخوف والخشية وإن كانا في اللغة بمعنى واحد إلّا أن بين خوف الله وخشيته في عرف أرباب القلوب فرقاً هو: أن الخوف تألم النفس من العقاب المتوقع بسبب ارتكاب المنهيات والتقصير في الطاعات وهو يحصل لأكثر الخلق، وإن كانت مراتبه متفاوتة جداً، والمرتبة العليا لا تحصل إلّا للقليل.

والخشية حالة تحصل عند الشعور بعظمة الحق وهيبته وخوف الحجب عنه، وهذه الحالة لا تحصل إلّا لمن اطلع على جلال الكبرياء، وذاق لذة القرب، ولذلك قال

١- سورة الشورى: ٣٠

٢- منتخب ميزان الحكمة. ص٨١.

٣- انظر مجمع البحرين: ج٣ ص٤١.

٤- بحار الأنوار: ج٦٩ ص٥٣.

سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فالخشية خوف خاص، وقد يطلقون عليها الخوف أيضاً)[١].

وعليه فلا تحصل الخشية منه عز شأنه إلّا بعلم ومعرفة بعظمة الخالق وقدرته وجباريته وجبروته وجلاله وكبريائه وقهاريته وسلطانه، ومن الطرق لذلك الدعاء والطلب منه تعالى، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في الدعاء: (اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك)[٢]، والتفكر العميق، والتأمل الدقيق في آفاق الكون الواسع المتوسع، قال سبحانه: ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[٣].

فالكواكب والمجرات، والغازات والانفجارات، والحيوانات والجمادات والقوانين والتوازنات والزوجيات والمتضادات مما لا يمكن حصرها والوقوف على كنهها، كلها تدل على عظَمَة الكون المخلوق فكيف بعَظَمة المكوّن الخالق الذي وصف نفسه بالعظمة، ومعه فليس للمتحير المبهور إلّا أن يقول: اللهم عرّفني نفسك...

ونظر كذلك إلى الأرض وما فيها من ماء وهواء، ونار ومواد وحيوان وبشر وطير وشجر وما أودع فيها من قوانين وأسرار كل ذلك يوصل الإنسان إلى الخشية أو بعض منها من ذي الجلال والإكرام سبحانه وتعالى.

ثم إن لكل إنسان وجهاً لحياته ظاهراً، وآخر باطناً خفياً عن غير الله سبحانه، والدين يريد التوازن بين وجهي الحياة في الأعمال المعلنة والسرية، فمن كان متديناً في الظاهر عليه أن يكون كذلك في الخفاء والسر، فإن الشاهد هو الحاكم وإلّا كان مرائياً يجعل المولى عز وجل من أهون الناظرين إليه، بل إن هذا التوازن ينبغي أن يكون دقيقاً جداً فإنه جاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: من كان ظاهره أرجح من باطنه خف ميزانه)[٤]، وخفيف الميزان هالك كما قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ۞

١- الأربعون حديثاً ـ للبهائي: ص١٠٧.

٢- الكافي: ج٢ص٥٧٧.

٣- سورة الذاريات: ٤٧.

٤- امالي الصدوق: ص٥٨٠.

نَارٌ حَامِيَةٌ﴾[١].

لذا أوصى أمير المؤمنين بأشرف أنواع الخوف وهو الخشية في السر والعلن أعاننا الله تعالى على ذلك.

قوله عليه السلام:

(وأنهاك عن التسرّع في القول والفعل)

التسرع ممدوح في الخيرات، والأعمال الموصلة إلى مغفرة الله سبحانه وتعالى قال سبحانه: ﴿فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾[٣] وقال عز من قائل: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[٤].

بل ورد مدح التعجّل في خصوص أعمال مما ينبئ باستحباب المسارعة إليها، فعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: (الأناة في كل شيء إلّا في ثلاث: إذا صيح في خيل الله فكونوا أول من يشخص، وإذا نودي للصلاة فكونوا أول من يخرج، وإذا كانت الجنازة فعجلوا بها، ثم الأناة بعدُ خير)[٥]، وعنه صلى الله عليه وآله: (ثلاثة لا تؤخر، الصلاة إذا أتت، والجنازة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت كفؤاً)[٦]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (ليس من عادة الكرام تأخير الإنعام)[٧].

فعلى ذلك تكون العجلة المذمومة في الأقوال والأعمال الدنيوية، والتي لا تكون مصداقاً للخيرات فعنه صلى الله عليه وآله: (إنما أهلك الناس العجلة، ولو أن الناس تثبتوا لم

١- سورة القارعة: ٨-١١.

٢- سورة البقرة: ١٤٨.

٣- سورة الأنبياء: ٩١.

٤- سورة آل عمران: ١٣٣.

٥- الخصال الحسنة: ص١٠٠.

٦- نهج البلاغة.

٧- نهج البلاغة خطبة ١٤٠

يهلك أحد)[١] وعنه ﷺ: (الأناة من الله، والعجلة من الشيطان)[٢]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (أصاب متأن أو كاد، أخطأ مستعجل أو كاد)[٣].

ومن هذا كله تعرف مراد قوله عليه السلام في الوصية: (وإذا عرض شيء من أمر الآخرة فابدأ به، وإذا عرض شيء من أمر الدنيا فتأنه، حتى تصيب رشدك فيه).

قوله عليه السلام:

(وإياك ومواطن التُّهمة)

إياك: كلمة تحذير وهي بدل من فعل باعد أو ابتعد[٤]، يقال إياك والاسد، أو إياك والحسد، وعليه يكون المعنى ابتعد عن مواضع التهمة، لأن من اختلف إليها وقع في مواردها، أو اتهم بها، فعن الرسول الأكرم ﷺ: (أولى الناس بالتهمة من جالس أهل التهمة)[٥]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (من وقف نفسه موقف التهمة فلا يلومنّ من أساء الظن به)[٦]، وأيضاً عن أمير المؤمنين عليه السلام: (من دخل مداخل السوء اتُّهِم)[٧].

ولعمري لقد كثرت مواطن التهمة في زماننا، فالخانات، وبيوت الفحشاء، وأماكن الغناء والرقص، ومواخير الفسق والفجور، ونوادي المنكر والقمار، وتجمعات الشذوذ الجنسي والمثلية، وأقلها المقاهي ففيها يكثر الاغتياب، والسماع والنظر المحرم، وممارسة الألعاب الوضيعة، وصرف الأوقات، وتأخير الصلوات بل تضييعها.

ثم إن مواطن التهمة لا تقتصر على ما ذكر فربما يكون مقر حزب سياسي موضعاً للتهمة لتماديه في خيانة وطنه وشعبه، أو لأفكاره الهدامة المنافية لقيم الدين،

١- المحاسن: ج١ ص٣٤٠.

٢- المحاسن: ج١ ص٣٤٠.

٣- غرر الحكم: ص٣١٠-٣١١.

٤- مختار الصحاح: ص٢٥.

٥- أمالي الصدوق: ص٣٨.

٦- البحار: ج٢ ص٩٠.

٧- البحار: ج٧٢ص٩٠.

وأخلاق الخيرين.

فإن الدخول في ذلك يهتك الشخصية، ويدمر السمعة، ويجر الغِيبة للمرتاد من قبل الناس وغير ذلك.

والشرع أكد وحرص على حفظ الكرامة، وصيانة السمعة، وجبّ الغِيبة وبالغ في ذلك فتأمل في هذا الحديث، عن الإمام الصادق عليه السلام: (اتقوا مواضع الريب، ولا يقفن أحدكم مع أمه في الطريق، فإنه ليس كل أحد يعرفها)[١].

قوله عليه السلام:

(والمجلس المظنون به السوء، فإن قرين السوء يغرّ جليسه)

لقد أولت الشريعة المقدسة اهتماماً بكل مفردات حياة الإنسان للحفاظ على نقاء فطرته واستقامة طريقته ليصل إلى كماله ومن ثم إلى رضوان ربه عز وجل.

ومن ذلك مجالس الإنسان وجلسائه لما في ذلك من الأثر الكبير والمباشر على شخصية الإنسان وسلوكه، لذلك قال الإمام عليه السلام: (يغرّ جليسه) أي يخدعه، ويطمعه في الباطل وفي رواية الشيخ المفيد رحمه الله: (يغير جليسه) من التغيير لا الغرور، وكيفما كان فالمعنى متقارب وهي حقيقة دليلها الواقع.

ولنعم ما قيل:

عاشر أخا ثقة تحظى بصحبته ... فالطبع مكتسبٌ من كل مصحوبِ

فالريح آخذة مما تمر به ... نتناً من النتن أو طيباً من الطيبِ

فالصاحب والجليس يجب أن يُختار بعناية ودقة، وهي مسؤولية تقع على عاتق المكلفين البالغين، وعلى الآباء بالنسبة لأبنائهم، فعليهم مراقبة الأولاد من جهة أصدقائهم وجلسائهم.

وروي عنهم عليهم السلام: (كان لقمان يقول لابنه: يا بني اختر المجالس على عينك،

١- البحار: ج٧٢ص٩١.

فإن رأيت قوماً يذكرون الله جل وعز فاجلس معهم، فإن تكن عالماً نفعك علمك، وإن كنت جاهلاً علّموك، ولعل الله أن يظلهم برحمته فيعمك معهم، وإذا رأيت قوماً لا يذكرون الله فلا تجلس معهم، فإن تكن عالماً لم ينفعك علمك، وإن كنت جاهلاً يزيدوك جهلاً، ولعل الله أن يظلهم بعقوبة فيعمك معهم)[١].

فقوله: اختر المجالس على عينك أي اطلب مختارها على بصيرة منك ومعرفة لك بحالها، ومجالس ذكر الله أي مجالس الخير عموماً، فلابد إذاً من اختيار الجليس والمجلس، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قالت الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام: يا روح الله مَن نُجالس؟ قال: من يذكّركُم اللهَ رؤيتُه، ويزيد في عملكم منطقُه، ويرغّبكم في الآخرة عملُه)[٢].

شروط جليس الخير:

وهنا ثلاثة شروط لجليس الخير:

١. أن تكون رؤيته موجبة لذكر الله تعالى كرؤية المؤمنين والعباد والزهاد وأهل الخير والشرف والكرامة والسلامة فعنه صلى الله عليه وآله: (مجالسة أهل الدين شرف الدنيا والآخرة)[٣].

٢. أن يكون كلامه موجباً لازدياد علم من يجالسه كالعلماء وحَمَلة علوم وأخلاق أهل البيت عليهم السلام من الخطباء الحسينيين والمبلغين المخلصين، فعن علي عليه السلام أنه قال: (جلوس ساعة عند العلماء أحب إلى الله من عبادة ألف سنة)[٤].

وعن سعد الإسكافي قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: (إني أجلس فأقص وأذكر حقكم وفضلكم، قال: وددت أن على كل ثلاثين ذراعاً قاصاً مثلك)[٥].

٣. أن يكون عمله مما يرغب في الآخرة، وهذا يكشف عن موافقة أقوال الجليس

١- الكافي: ج١ ص٣٩.

٢- الكافي: ج١ ص٣٩.

٣- مستدرك سفينة البحار: ج٢ص٧٥.

٤- نفس المصدر: ج٢ص٧٥.

٥- نفس المصدر: ج٢ص٧٤.

لأعماله، فلا يكون من أصحاب القول فقط، فعن الإمام الصادق عليه السلام: (المجلس أجلسه إلى من أثق به، أوثق في نفسي من عمل سنة)[١].

وفي هذا المقطع من الوصية، وحديث عيسى عليه السلام منع من مجالسة من لم يكن على هذه الصفات فكيف بمن يتصف بأضدادها كأكثر الناس، وعليه فينبغي أن يقلل الإنسان من معارفه، قال معروف الكرخي لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: (أوصني يا ابن رسول الله، فقال: أقلل معارفك، قال: زدني، قال: أنكر من عرفت منهم، قال: زدني، قال: حسبك)[٢].

وهذا الحديث يوضح مدى التأثير الكبير للصاحب والجليس على حياة الإنسان عقيدة وعملاً فتأمل.

ثم إنه ورد التحذير من مجالسة أهل الريب، والأشرار، والفساق، فعن النبي صلى الله عليه وآله: (لا تجلسوا عند كل عالم إلّا عالم يدعوكم من الخَمْس إلى الخَمْس: من الشك إلى اليقين، ومن الكبر إلى التواضع، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن العداوة إلى النصيحة، ومن الرغبة إلى الزهد)[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار)[٤]، فهي لا تغير فقط بل وتوجب سوء الظن بالأخيار، وعن الإمام الصادق عليه السلام: (لا ينبغي للمؤمن أن يجلس مجلساً يُعصى الله فيه ولا يقدر على تغييره)[٥].

وعنه عليه السلام: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس مجلساً يُنتقص فيه إمام أو يُعاب فيه مؤمن)[٦].

وعن الجعفري قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: (ما لي رأيتك عند عبد الرحمن ابن يعقوب؟ فقال: إنه خالي، فقال: إنه يقول في الله قولاً عظيماً، يصف الله ولا

١- نفس المصدر: ج٢ص٧٤.

٢- جامع احاديث الشيعة: ج١٠٤ص١٩٦.

٣- مستدرك سفينة البحار: ج٢ص٧٤.

٤- نفس المصدر: ج٢ص٧٥.

٥- موسوعة احاديث اهل البيت: ج ص٣٩.

٦- نفس المصدر: ج١٠ص١٣٩.

يوصف فإما جلست معه وتركتنا، وإما جلست معنا وتركته؟ فقلت: هو يقول ما يشاء أي شيء عليّ منه إذا لم أقل ما يقول؟ فقال: أبو الحسن عليه السلام: أما تخاف أن تنزل به نقمة فتصيبكم جميعاً، أما علمت بالذي كان من أصحاب موسى عليه السلام، وكان أبوه من أصحاب فرعون فلما لحقت خيل فرعون موسى تخلف عنه ليعظ أباه فيلحقه بموسى فمضى أبوه وهو يراغمه حتى بلغا طرفاً من البحر فغرقا جميعاً فأتى موسى عليه السلام الخبر، فقال: هو في رحمة الله ولكن النقمة إذا نزلت لم يكن لها عمن قارب المذنب دفاع)[1].

قوله عليه السلام:

(وكن لله - يا بني - عاملاً)

ما يميز الأديان عن الفكر الأرضي أن الأديان جاءت للظاهر والباطن، بل نظرها الأساس لبواطن الأشياء وحقائقها، لذلك فالعمل في نظر الدين جسد وروح، روحه النية والقصد وهي المحرك والباعث نحو العمل والمقوم له، فبها يُقبل وبها يُرد، وهي أفضل وخير من نفس العمل، فعنه صلى الله عليه وآله: (نية المؤمن خيرٌ من عمله)[2].

لذلك جاء هذا المقطع من الوصية مقدماً للظرف (الجار والمجرور)، وهذا التركيب اللغوي يدل على الحصر، أي فليكن عملك خالصاً لوجه الله تعالى.

والخالص في اللغة كل ما صفى ونقى ولم يمتزج بغيره، فالذهب الخالص هو المتخلص عن كل ما يشوبه من المعادن.

والإخلاص كما عرفه أصحاب القلوب هو تنزيه العمل عن أن يكون لغير الله سبحانه فيه نصيب، أو إخراج الخلق عن معاملة الحق، أو أن لا يريد العامل على عمله عوضاً في الدارين، والأخيرة مرتبة عزيزة المنال، أشار إليها أمير المؤمنين وسيد الموحدين، صلوات الله عليه: إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك)[3].

١- الكافي: ج٣ص٣٧٤.

٢- الكافي: ج٢ص٨٤.

٣- الوافي: ج٣ص٧٠.

والعمل الخاص كما جاء في آثار بيت العصمة والطهارة والإخلاص يوضحه ما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: (في قوله الله عز وجل ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، قال: ليس يعني أكثركم عملاً ولكن أصْوَبكُم عملاً، وإنما الإصابة خشية الله، والنية الخالصة.. ثم قال: العمل الخالص الذي لا تريد أن يمدحك عليه أحد إلا الله عز وجل، والنية أفضل من العمل)[1].

ولتقريب المطلب أكثر:

إن العمل إما أن يكون خالصاً لله تعالى، أو خالصاً لغيره، أو له سبحانه ولغيره، أو لله جل وعز ولِحَظّ وغرضٍ آخر.

مثال الأول: الصدقة لوجهه سبحانه، والثاني: الصدقة طلباً للثناء، والثالث: الصدقة لله تعالى وللثناء، والرابع: الصدقة لله تعالى ولتحصيل الثواب، أو لإطفاء غضب الرب.

فالأول مخلص له تعالى، والثاني مخلصٌ لغيره، والثالث: مشرك في نيته، والرابع: نيته مشوبة ومركبة ليست بسيطة.

فلا كلام في الأول والثاني لوضوحهما، إنما الكلام في الثالث والرابع.

اما القسم الثالث فهو الرياء وهو آفة العمل، ولا إشكال ولا ريب عند الفقهاء في بطلان العبادة به وفسادها، قال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[2]، وعن الصادق عليه السلام: (ويلك يا عبّاد.. إياك والرياء، فإن من عمل لغير الله وكَلَهُ الله إلى من عَمِلَ له)[3]، وربما لا يضم المرائي قصد المولى عز وجل إلى نيته فيكون من القسم الثاني.

وللشيطان حبائل كثيرة ففي الصلاة مثلاً، يقوم المرائي بإحسان صلاته لو كان بين الناس، ويصلي كيف كان لو كان وحده، وقد يتنبه لذلك فيحسن صلاته في السر ليصلي في العلن كذلك، أو يأتيه الشيطان فيقول له: أحسن ركوعك وسجودك فإنك ممن يقتدى بك.

١- الكافي: ج٢ص١٦.

٢- سورة الكهف. ١١٠.

٣- الوسائل: باب ١١ العبادات.

فالمخلص تكون صلاته واحدة في السر والعلن فقد روي عن النبي ﷺ: (إن العبد إذا صلى في العلانية فأحسن، وصلى في السر فأحسن، قال الله تعالى: هذا عبدي حقاً)[١].

والإخلاص يحتاج لخطوة نظرية تتحول ليقين قلبي وهي معرفة أن الضار النافع هو واحد لا شريك له هو مسبب الأسباب، ومقلب القلوب، الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير، فيجب مصانعة ذلك الوجه، فعنه ﷺ: (إعمل لوجه واحد يكفيك الوجوه كلها)[٢].

وعليه فليس للمرء إلّا أن يكون مخلصاً، فعن الصادق عليه السلام: (ولابد للعبد من خالص النية في كل حركة وسكون، وإذ لو لم يكن بهذا المعنى يكون غافلاً، والغافلون قد وصفهم الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا﴾)[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (طوبى لمن أخلص لله عمله وعلمه وحبه وبغضه وأخذه وتركه وكلامه وصمته وفعله وقوله)[٤].

فالإخلاص من أهم وأعز الأمور ولا ينال بالمعرفة فقط بل بالمجاهدة والدربة وإخفاء الأعمال وكتمان بعض العبادات، فعن الرسول الأكرم ﷺ مخبراً عن جبرائيل عن الله عز وجل أنه قال: (الإخلاص سر من أسراري استودعته قلب من أحببت من عبادي)[٥].

ويستفاد من بعض الروايات الشريفة طرقاً لتحصيل الإخلاص منها: أن يكون الإنسان محباً لإخلاص العبادة والطاعة له سبحانه، فعن النبي ﷺ: (قال الله عز وجل: لا أطّلع على قلب عبد فأعلم منه حب الإخلاص لطاعتي لوجهي ابتغاء مرضاتي إلّا توليت تقويمه وسياسته)[٦]، وأن يكون مخالفاً لهواه، فعن أمير المؤمنين

١- كنز العمال: ج٣ص٢٣.

٢- ميزان الحكمة: ج١ ص٧٥٤.

٣- نفس المصدر.

٤- نفس المصدر: ص٧٥٥.

٥- نفس المصدر: ج١ص٧٥٤.

٦- نفس المصدر: ج١ ص٧٥٩.

عليه السلام: (كيف يستطيع الإخلاص من يغلبه الهوى)[١].

والسؤال منه تعالى أن يمنّ عليه بالإخلاص ففي الدعاء المروي عن الإمام المهدي عجل الله فرجه: (اللهم ارزقني توفيق الطاعة وبُعدَ المعصية وصِدْقَ النية وعِرفانَ الحُرمة...)[٢]. واليأس مما في أيدي الناس فعن علي عليه السلام أنه قال: (أصل الإخلاص اليأس مما في أيدي الناس)[٣]، لأنه لو تأمل في أسباب الرياء لوجدها جميعاً من أجل جر الفائدة للنفس سواء كانت مادية أو معنوية، أو لأجل دفع الضرر كذلك، وهذا يحصل لو توهم المرء أن ذلك بيد الناس وغاب عنه أنه بيده تعالى لذلك جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: (الإخلاص ثمرة اليقين)[٤].

بقي شيء:

قد عرفت أن قصد تحصيل الثواب، ودفع العقاب ضميمة إلى قصد وجه الله تعالى فهل ذلك ينافي الإخلاص بحيث تبطل العبادة من الناحية الفقهية؟

قال جملة من الفقهاء: بأن هذا القصد مبطل للعبادة لمنافاته للإخلاص فذلك كمن عظم شخصاً أو أثنى عليه طمعاً في ماله أو خوفاً من إهانته فلا يعد مخلصاً في ذلك التعظيم والثناء، وإنما قصد جر النفع ودفع الأذى عن نفسه.

وقال آخرون: إن هذا القصد غير مفسد للإخلاص في العمل عموماً، والعبادة خصوصاً لأن العمل الواقع على ذلك النحو بأمر منه سبحانه في عديد الآيات والروايات كقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[٥]، وكقوله تعالى: ﴿الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[٦] ففيها ندب إلى التجارة عليه ووعد بالجزيل من العطاء الكريم، ولعل أفضل ما استدل به على المطلب ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: (العبادة ثلاث: قوم عبدوا الله عز وجل خوفاً، فتلك

١- نفس المصدر: ج١ ص٧٥٩.

٢- المصباح للكفعمي: ص٢٨٠.

٣- ميزان الحكمة: ج١ ص٧٥٨.

٤- نفس المصدر: ج١ص٧٥٨.

٥- سورة السجدة: ٦.

٦- سورة البقرة: ٢٤٥

عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طَلباً للثواب فتلك عبادة الأُجَراء، وقوم عبدوا الله حباً له فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة)[١].

فإن (أفضل) أفعل تفضيل تدل على أن العبادة على الوجهين الأولين لا تخلو من فضل أيضاً وإن كانتا أقل مرتبة.

ومن سرّح النظر في الكتاب العزيز والسنة الشريفة وجدهما مشحونتين بالترغيب في مقام الطاعات، والترهيب على المخالفات لذلك جرى الفقهاء المعاصرون على أن قصد ثواب المولى تعالى، وخوف عذابه لا يفسدان الإخلاص ولا يبطلان العبادة والله تعالى العالم بواقع الأمور.

قوله عليه السلام:

(وعن الخنا زجوراً)

الخنا: من قبيح الكلام، يقال: خنا في منطقه، والخنا الفحش، بل إن الخنا من الكلام أفحشه[٢]، والزجر: المنع والنهي والانتهار[٣].

إن الفحش في الكلام فضلاً عن مخالفته للآداب العامة، فهو مبغوض شرعاً لدرجة أنه قد يصير مانعاً عن قبول الصلاة، فلقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (من أنشد بيت شعر من الخنا والهجاء في يوم لم تقبل منه صلاة يومه، وإن أنشده في ليلة لم تقبل منه صلاة تلك الليلة)[٤].

ثم إن الفحش مناف للتكرم المناسب لعباد الله تعالى المكرمين بالآدمية والإيمان، لذا ألفت سيد الساجدين لهذا المعنى الجليل في رسالة حقوقه الشريفة بقوله عليه السلام: (وأما حق اللسان فإكرامه عن الخنا وتعويده على الخير وحمله على الأدب وإجمامه إلا لموضع الحاجة والمنفعة للدين والدنيا وإعفاؤه عن الفضول الشنعة القليلة الفائدة التي لا يؤمن ضررها مع قلة عائدتها، ويعد شاهد العقل والدليل عليه وتزين العاقل

١- الكافي: ج٢ ص٨٤.

٢- لسان العرب: ج١٤ ص٢٤٤.

٣- لسان العرب: ج٤ ص٣١٨.

٤- تهذيب الأحكام: للطوسي: ج٢ ص٢٤١ ح٢١، باب فضل الصلاة من أبواب الزيادات.

بعقله حسن سيرته في لسانه ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)[١].

قوله عليه السلام:

(وبالمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً)

المعروف لغة: اسم لكل ما اتصف بحال يوجب كونها معلوماً، ومنه يقال فلان معروف.

وشرعاً: هو كل فعل حسن اختص بوصف زائد على حسنه إذا عرف فاعله ذلك أو دَلّ عليه، والمراد بالوصف الزائد على حسنه كونه واجباً أو مستحباً شرعاً، وعلى ذلك فالمعروف اسم لجميع ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى كالصلاة والزكاة والإحسان إلى الناس إلى غير ذلك من مكارم الأعمال، ومحاسن الأفعال.

والمنكر لغة: الشيء المتغير عن حاله ووصفه حتّى ينكر ويجهل.

وشرعاً: كل فعل قبيح عرف فاعله قبحه أو دُلَّ عليه، فالمنكر هو الحرام واختلف في دخول المكروه فيه، لكن بعد معرفة أن النهي عن المكروه راجح يكون الأمر فيه سهلاً[٢].

أما الأمر بالمعروف فيعني الحمل على الطاعة قولاً أو فعلاً، والنهي عن المنكر المنع من فعل المعاصي قولاً أو فعلاً.

إذا عرفت هذا فاعلم أنه ليس لكل أحد أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر لاشتراط ذلك بأمور وهي:

١. أن يكون الآمر والناهي عالماً بالمعروف والمنكر لكي لا يأمر بمنكر ولا ينهى عن معروف.
٢. كون الفاعل مُصِرّاً وإلّا سقط الوجوب أو الاستحباب لارتفاع موضوع الأمر والنهي، بل يحرم لو استلزم هتك حرمة المأمور والمنهي.

١ – تحف العقول: للحراني: ص٢٥٥.

٢ – انظر شرح أصول الكافي: ج١ ص٢٦٥؛ وجواهر الكلام: ج٢١ص٣٥٦.

٣. أن يكون الآمر والناهي آمناً من الضرر على نفسه أو غيره من المؤمنين نفساً ومالاً وعرضاً، لأنه لا ضرر ولا حرج في الدين.

٤. احتمال التأثير فمع عدمه يكون لغواً.

ثم إن لعملية الأمر والنهي مراتب مستفادة من الأحاديث الشريفة لأهل العصمة والطهارة:

أولها: الإنكار بالقلب بإظهار الكراهة والإعراض عن الفاعل.

ثانيها: الأمر والنهي اللساني بالقول اللين، إن لم ينجح إظهار الكراهة والإعراض ثم القول الغليظ إن لم ينفع اللّين.

ثالثها: الإجراء العملي المناسب الرادع لتارك المعروف، ومرتكب المنكر وله مراتب، فإذا كفى الدفع أو الضغط على اليد أو الكتف مثلاً اقتصر عليه، وإلّا فيتدرج إلى فرك الأذن ونحوه، ثم الضرب غير المبرح، ثم المبرح ما لم يصل إلى جرح أو كسر، والاحتياط مع أخذ الأذن من الحاكم الشرعي في إعمال المرتبة الثالثة إذا لم تنفع المرتبتان الأُولَيان(١).

وبالجملة: إن الأسلوب المرضي والحكيم هو الذي يتخذ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (٢).

أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن من أهم الفرائض فريضة الأمر بالمعروف والنهي إذا لم تكن هي الأهم على الإطلاق، لأن جميع الفرائض تحتاج إقامتها والإتيان بها والمداومة عليها لتلك الفريضة واليك بعض الآيات والأحاديث الدالة على ذلك:

قال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣).

وروى الطوسي قدس سره عن النبي المصطفى ﷺ أنه قال: (لا تزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر، فإذا لم يفعلوا ذلك نزعت

١- انظر جواهر الكلام: ج٢١ص٣٧٨.

٢- سورة النحل: ١٢٥.

٣- سورة آل عمران: ١٠٤.

عنهم البركات وسلّط بعضهم على بعض، ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء)[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: (قال النبي صلى الله عليه وآله: إن الله عز وجل ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له، فقيل: وما المؤمن الضعيف الذي لا دين له؟ قال: الذي لا ينهى عن المنكر)[٢].

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام: (ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[٣].

وعنه عليه السلام في حديث طويل: (إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء، ومنهاج الصالحين، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحل المكاسب، وترد المظالم، وتعمر الأرض، وينتصف من الأعداء، ويستقيم الأمر، فانكروا بقلوبكم، والفظوا بألسنتكم وصكوا بها جباههم ولا تخافوا في الله لومة لائم...)[٤].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: (لما نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ جلس رجل من المسلمين يبكي وقال: أنا عجزت عن نفسي كُلفت أهلي! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك، وتنهاهم عما تنهى عنه نفسك)[٥].

وعليه فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يمارس ويتعبد بتلك الفريضة ابتداءً من البيت فالشارع والمدرسة والجامعة ومحل العمل والسوق وفي أي مكان يُترك فيه المعروف أو يُرتكب فيه المنكر، فإن الأمة التي يكون فيها أمر ونهي حية ومقدسة، وإلّا فالفساد والفجور والهرج والمرج وضياع الحقوق وتضييع الفرائض، وعندئذ يحل العقاب وينزل العذاب، ونحن في العراق خاصة أنعم الله تعالى علينا بالتمكين،

١- التهذيب: ج٦ص١٨١.
٢- نفس المصدر: ج٦ ص١٨١.
٣- التهذيب: ج٦ ص١٨١.
٤ - التهذيب: ج٦ص١٨٠.
٥- نفس المصدر: ج٦ص١٧٩.

وتلك نعمة عظيمة ينبغي أن تعرف وتشكر وإلا نفرت ولا تكاد تعود، فيجب علينا أن نتأمل في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[1].

فعلينا أن نؤسّس للشكر الاجتماعي من خلال إقامة الصلاة والإتيان بجميع الفرائض وخاصة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن المجتمع الذي يدير ظهره لنِعَمِ المولى عز وجل ليس بالنبيل.

قوله عليه السلام:

(وواخِ الإخوان في الله، وأحب الصالح لصلاحه، ودارِ الفاسق عن دينك وأبغضه بقلبك، وزايله بأعمالك لئلا تكون مثله)

رويت كلمة وآخ بثلاثة كيفيات، وأخ[2].. وواخ[3]، وراخ[4] وعلى النقلين الأولين يكون المعنى واحداً، وعلى الثالث فهو من المراخاة وهي ضد الشدة. والذي يظهر أن النقل الثالث تصحيف من وواخ لقربها من راخ رسماً، أما السياق فلا يأبى المعنى الأول ولا الثالث لمن تأمل والله العالم بحقيقة الأمور.

وعلى المعنى الأول، فهو أمر باتخاذ الأخوة لا مطلقاً بل بشرط كون التآخي في الله سبحانه لثمراته الأخروية وفوائده الدنيوية، فعن النبي صلى الله عليه وآله: (ما استفاد امرؤ مسلم فائدة بعد فائدة الإسلام مثل أخ يستفيده في الله)[5]، وقال صلى الله عليه وآله: (استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة يوم القيامة)[6]، وعن الإمام الصادق عليه السلام:

١- سورة الحج: ٤١.

٢- بحار الأنوار: للمجلسي: ج٧١ ص٢٧٥. نقله عن أمالي الطوسي: ج١ ص٦.

٣- أمالي المفيد: ص٢٢٢.

٤- الأربعون حديثا، للبهائي: ص٣٠٤.

٥- تنبيه الخواطر: ج٢ص١٧٩.

٦- كنز العمال: ج٩ص٤.

(استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن دعوة مستجابة)[١]، وقال عليه السلام: (أكثروا من مؤاخاة المؤمنين فإنّ لهم عند الله يداً يكافئهم بها يوم القيامة)[٢]، وعن الإمام الرضا عليه السلام: (من استفاد أخاً في الله عز وجل استفاد بيتاً في الجنة)[٣].

فالإخاء المطلوب ما كان لله تعالى وفيه، فهو يدوم بدوام سببه بخلاف ما كان للدنيا أو لحاجة لأنه سينقطع بل ينقلب عداوة، قال سبحانه: ﴿الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[٤] وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (الإخوان في الله تعالى تدوم مودتهم لدوام سببها)[٥]، وعنه عليه السلام: (من وادّك لأمرٍ ولى عند انقضائه)[٦].

ثم إنه ورد النهي عن مصاحبة أناس لصفاتهم فقد جاء عن الإمام الباقر عليه السلام: (أوصاني أبي فقال: يا بني لا تصحبن خمسة ولا تحادثهم ولا ترافقهم في طريق، فقلت: جعلت فداك يا أبة من هؤلاء الخمسة؟ فقال: لا تصحبن فاسقاً فإنه يبيعك بأكلة فما دونها، فقلت: يا أبة وما دونها؟ قال: يطمع فيها ثم لا ينالها، قال: قلت يا أبة ومن الثاني؟ قال: لا تصحبن البخيل فإنه يقطع بك في ماله أحوج ما كنت إليه، قال: قلت ومن الثالث؟ قال: لا تصحبن كذاباً فإنه بمنزلة السراب يبعد منك القريب ويقرب منك البعيد، قال: فقلت: ومن الرابع؟ قال: لا تصحبن أحمقاً فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، قال: قلت يا أبة من الخامس؟ قال: لا تصحبن قاطع رحم فإني وجدته ملعوناً في كتاب الله في ثلاثة مواضع)[٧].

ثم أمر الإمام عليه السلام بنوع علاقة مع الصالح والطالح، اما الأول فأمر عليه السلام بحبه لصلاحه فالعمل الصالح هو السبب للحب، وأما الطالح الفاسق، فبمداراته وببغضه

١- الوسائل: ج١٢ ص١٧.
٢- الوسائل: ج١٢ص١٧.
٣- ثواب الأعمال: ص١٥١.
٤- سورة الزخرف: ٦٧.
٥- ميزان الحكمة: ج١ ص٤١.
٦- ميزان الحكمة: ج١ص٤١.
٧- كشف الغمة: ج٢ص٢٩٣.

ومباينة أعماله حتّى لا يكون المرء مثله.

وهنا نحتاج لبيان مفهومَي الفسق والمداراة ليتضح المطلوب، أما الفسق: فهو في اللغة الخروج عن الشيء، من قولهم فسقت الثمرة أو الرطبة إذا خرجت من قشرها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي خرج، وسميت الفأرة فويسقة لخروجها للمضرة(١).

وفي الفقه: فهو الخروج عن جادة الشريعة المقدسة بناءً على أن الفسق يقابله العدالة، بارتكاب الكبائر والإصرار على الصغائر، أو قُل: هو الخروج عن طاعة المولى عز وجل بارتكاب الذنوب ويرتفع الفسق بالتوبة والرجوع إلى الطاعة.

وأما المداراة، فهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول والفعل، وذلك من أقوى أسباب الألفة وهي غير المداهنة لأن المداراة مندوب إليها شرعاً، والمداهنة منهي عنها، والفرق أن المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه مثل الصبغ على الحائط، وهي المساهلة(٢)، وفسرت بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه، وعليه فمن المداراة الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله وترك الإغلاظ عليه، وإنما ينكر عليه بلطف القول والفعل خاصة لو أريد تأليف قلبه، ودعوته إلى الصلاح والخير، قال سبحانه: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾(٣).

وعن الإمام الحسن العسكري عليه السلام قال: (إن مداراة أعداء الله من أفضل صدقة المرء على نفسه وإخوانه، كان رسول الله صلى الله عليه وآله في منزله، إذ استأذن عليه عبد الله بن أبي سلول، فقال صلى الله عليه وآله: بئس أخو العشيرة آئذنوا له، فأذنوا له، فلما دخل أجلسه، وبشر في وجهه، فلما خرج قالت عائشة، يا رسول الله، قلت فيه ما قلت، وفعلت به من البشر ما فعلت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ... إن شر الناس عند الله يوم القيامة، مَن يُكرم اتّقاء شره)(٤).

فهذان المثالان في المداراة يبينان لا بدية مداراة أناس ليس هناك مناص من

١- انظر الصحاح في اللغة: ج٢ص٤٤.

٢- مجمع البحرين: ج٦ص٢٥٠.

٣- سورة طه: ٤٣-٤٤.

٤- مستدرك الوسائل: ج٩ص٣٦.

معاشرتهم، وأن يبذل لهم من الدنيا لصلاح الدين أو الدنيا، بخلاف المداهنة فهي بذل الدين لصلاح الدنيا.

وهنا قد يُسأل سؤالان:

الأول: إن الأمر بالاستكثار من الإخوة يتعارض مع ما تقدم من الأمر بلزوم البيت وتقليل المعارف؟

وجوابه: الأمر باتخاذ الإخوة والإكثار منهم ليس مطلقاً بل المؤمنين الأتقياء في حب الله، ولله عز وجل، وأما تقليل المعارف والعزلة فمن عامة الناس فلا تنافي بين الأمرين.

الثاني: المداراة ربما لا تنسجم مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

وجوابه: إن المداراة لا تعني ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل هي استعمال أحسن الطرق فيهما من اللين وتجنب الفضاضة والغلظة، وكما عرفت أن المداراة مع الفساق والمنافقين لتأليف قلوبهم، ودعوتهم لسبيل الحق، أو لاتقاء شرهم فلا تنافي أيضاً.

قوله عليه السلام:

(وإياك والجلوس في الطرقات)

لما في ذلك من جعل للنفس في مواجهة الذنوب، ففي الطريق (الشارع) صور ومواقف وأحداث مختلفة ومتنوعة، وهناك نظر وكلام واستماع وإشارة وقطع لطريق المارة أو تضييق له، وقد يكون الجالس مهاباً فيمتنع المارة من المرور هيبة أو خوفاً ولا يخفى ما في ذلك من الآفات.

والجلوس في الطريق يرتب على الجالس واجباً مهماً قد يقصّر في أدائه فيكون آثماً، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مضافاً إلى أنه لا يناسب المروءة والآداب

العامة، لذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إياكم والجلوس في الطرقات. قالوا: يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: إن أبَيْتم فاعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)[1].

ويدخل في الأذى الغيبة وتحقير المارة، وسوء الظن.

فبالجملة: إن الجلوس في الطرقات تعرض للافتتان، وعدمه من أسباب العصمة من كثير من المعاصي وخوارم المروءة.

تتمة:

لا يقتصر النهي عن الجلوس على مجالس الطرقات، فقد ورد في القرآن الكريم والسنة الشريفة النهي والتحذير من الجلوس في مجالس منها:

١. قال سبحانه: ﴿وإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2]، والخوض التخليط على سبيل العبث واللعب، وترك التفهم واليقين، ومثله قول القائل: تركت القوم يخوضون، أي ليسوا على سداد فهم يذهبون ويجيئون من غير تحقيق، وفُسّر الخوض بالتكذيب بالآيات والدين[3].

٢. عن الإمام الصادق عليه السلام (في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[4]، إنما عني بهذا الرجل يجحد الحق ويكذب به ويقع في الأئمة فقم من عنده ولا تقاعده كائناً من كان)[5].

٣. عن الإمام علي عليه السلام: (لا تجلسوا على مائدة يشرب عليها الخمر، فإن العبد

١- سنن أبي داود: ج٢ص٤٣٩.

٢- سورة الإنعام: ٦٨.

٣- انظر التبيان: ج٤ص١٦٤.

٤- سورة النساء: ١٤٠.

٥- ميزان الحكمة: ج١ص٣٩٧.

لا يدري متى يؤخذ)[١].

٤. عن الإمام الصادق عليه السلام: (لا ينبغي للمؤمن أن يجلس مجلساً يُعصى الله فيه ولا يقدر على تغييره)[٢].

قوله عليه السلام:

(ودع المماراة ومجاراة من لا عقل له ولا علم)

المراد هو المجادلة واللجاجة والطعن في القول، والتصغير للقائل، وإظهار قوة جدل المجادل لا لإحقاق الحق، وأصله من مرين الناقة إذا مسحت ضرعها لتدر الحليب[٣]، فمارى فلان فلاناً أي استخرج ما عنده من الكلام والحجة ويقال الشكر يمتري المزيد أي يجلبه.

قال تعالى: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ أي أفتجادلونه، وأطلق القرآن المراء على المناظرة والمحاججة المسيطرة والمنتصرة والغالبة والمنطقية التي توضح رجحان الحجة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِرًا﴾ هي التي جاءت في شأن فتية الكهف[٤].

وعلى ذلك فقد جاء النهي المؤكد عن المماراة مطلقاً أو مع ذوات بعينهم فعن النبي صلى الله عليه وآله: (أورع الناس من ترك المراء وإن كان محقاً)[٥].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (إياكم والمراء والخصومة فإنهما يمرضان القلوب على الإخوان، وينبت عليهما النفاق)[٦].

وعنه عليه السلام: (ستة لا يُمـارَون، الفقيه، والرئيس ، والـدنيء، والبـذيء، والمرأة

١- ميزان الحكمة: ج١ص٣٩٧.

٢- نفس المصدر.

٣- مفردات غريب القرآن: ص٤٦٧.

٤- انظر الأمثل: ج٩ص٢٢٨.

٥- منتخب ميزان الحكمة: ص٤٦٣.

٦- الكافي: ج٢ص٣٠٠.

والصبي) [١].

وبذلك يتضح مراد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من قوله (ومجاراة من لا عقل له، ولا علم) لأن الأول أحمق، وهو لا دواء له كما قال الأديب:

لكل داء دواء يستطب به ... إلاّ الحماقة أعيت من يداويها

والجاهل لا فائدة من منازعته، فيكون جداله لغواً، ولأن الجاهل هو الغالب عادة.

قوله عليه السلام:

(واقتصد يا بني في معيشتك)

القصد: هو الوسطية والاعتدال في صرف المال بين الإفراط والتفريط، قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[٢] فهو ترك الإسراف والتقتير جميعاً[٣]، لذا لابد من معرفة طرفيه من السرف والتقتير.

أما الإسراف فهو مجاوزة الحد في صرف المال حتى لو كان في حق، فعن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: (إن الرجل ينفق ماله في حق وإنه لمسرف)[٤].

وهذا يصدق على من يلبس ثياباً ثمينة تعادل أضعاف ما يحتاجه واقعاً، أو يأكل طعاماً غالياً جداً بحيث يمكنه إطعام عدد من الفقراء بثمنه، ولعله لذلك ولغيره قال سبحانه: ﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾[٥]، فتبين من ذلك أن الإسراف هو صرف الشيء فيما ينبغي زائداً على ما ينبغي، وهو غير التبذير الذي هو صرف الشيء فيما لا ينبغي بحيث يؤدي إلى إتلاف المال كصرف المال في المحرمات.

والإقتار: هو التقصير والتضييق في الإنفاق عما لابد منه كحق الله تعالى، ونفقة

١- منتخب ميزان الحكمة: ص٤٦٣.

٢- سورة الفرقان: ٦٧.

٣- الفروق اللغوية: ص٤٢٩.

٤- من لا يحضره الفقيه: ج٣ص١٠٢.

٥- سورة الأعراف: ٣١.

العيال والتوسعة عليهم وصون العرض وربما يدخل فيه ترك إظهار نعمة الله على العبد لقوله سبحانه ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1]، والذي يجدر ذكره أن التقتير أعم من البخل فقد يكون سببه الزهد في ملاذ الدنيا توفيراً للصدقة على المحتاجين، ولعل أفضل ما يوضح الإقتار والقصد الأثر الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث: (قلت فما الإقتار: قال أكل الخبز والملح وأنت تقدر على غيره، قلت: فما القصد؟ قال: الخبز واللحم واللبن والخل والسمن مرة هذا ومرة هذا)[2] بعد ملاحظة الفوارق في الطعام بين ذاك الزمان وهذا الزمان.

والذي يتحصل مما تقدم أن المرء إذا كان له دخل يومي أو شهري أو سنوي فعليه أن يقدر معيشته وعياله على قدر دخله حتى لا يقع في العيلة والعوز، وأن يضع المال في المناسب من الاحتياجات ليكون مع قضية الاقتصاد وإليك بعض الأحاديث الدالة على ذلك.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: (أفطر رسول الله عشية خميس في مسجد قُبا، فقال: هل من شراب؟ فأتاه أوس بن خولي الأنصاري بعس مخيض بعسل، فلما وضعه على فيه نحاه ثم قال: شرابان يكتفى بأحدهما، من صاحبه، لا أشربه ولا أحرمه، ولكن أتواضع لله فإن من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر خفضه الله، ومن اقتصد في معيشته رزقه الله، ومن بذر حرمه الله، ومن ذكر الموت أحبه الله)[3].

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (القصد مثراة، والسرف متواة)[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: (ضمنت لمن اقتصد أن لا يفتقر)[5].

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام: (قال علي بن الحسين صلوات الله عليهما: لينفق الرجل بالقصد، وبلغة الكفاف، ويقدم منه فضلاً لآخرته فإن ذلك أبقى للنعمة، وأقرب إلى المزيد من الله عز وجل وأنفع في العافية)[6].

وعن أبي جعفر عليه السلام أنه قال لأبي عبد الله عليه السلام: (يا بني عليك بالحسنة بين

١- سورة الضحى: ١١.

٢- الكافي: ج٤ص٥٤.

٣- نفس المصدر: ج٢ص١٢٢.

٤- نفس المصدر: ج٤ص٥٢.

٥- موسوعة أحاديث أهل البيت: ج١ص٣٩٢.

٦- الكافي: ج٤ص٥٢.

السيئتين تمحوهما، قال: وكيف ذلك يا أبة؟ قال: مثل قول الله: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾، ومثل قوله: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾، ومثل قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ فأسرفوا سيئة وأقتروا سيئة ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ حسنة فعليك بالحسنة بين السيئتين)[١]، فالاعتدال والتوسط هو الحسنة.

قوله عليه السلام:
(واقتصد في عبادتك، وعليك فيها بالأمر الدائم الذي تطيقه)

والكلام هنا في مطالب:

الأول: في تعريف العبادة:

أصل العبادة في اللغة التذليل من قولهم طريق معبد، أي مذلل بكثرة الوطء، وهي الطاعة مع الخضوع[٢].

وشرعاً: ما أمر به لأجل التعبد به، أو ما يتوقف صحته على النية[٣]، كالصلاة والصوم والحج والزكاة والخمس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذكر وغيرها.

الثاني: أنها العلة الغائية للخلق:

إن لكل مخلوق موجود غاية وهدفاً لوجوده، لأجلها خُلق وصُنع، لا يصل إلى كماله إلّا إذا حقق غاية وجوده، مثلاً الكرسي صنع من أجل الجلوس عليه، فما دام صالحاً للجلوس عليه مريحاً كان محققاً لغاية وجوده محصلاً لكماله، أما إذا فقد ذلك فإنه سيُرمى أو يُتلف أو يستخدم لغرض آخر كأن يكون حطباً، وعلى ذلك قس الإنسان، فغاية وجوده العبادة لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٤]، ولا يصل إلى كماله إلّا بالعبادة، ومن دونها لا وزن له ولا قيمة

---

١ - مستدرك سفينة البحار: ج١٠ص٢٩٧.

٢ - تهذيب اللغة: ج١ص٢٣١.

٣ - كفاية الأصول: ج٢ ص٣١

٤ - سورة الذاريات: ٥٦.

مَثَله مثل الكرسي الذي لا يصلح للجلوس عليه، والقلم الذي لا يكتب والجهاز المعطل والدواء الفاسد.

ومثل ذلك الناس الذين لا عبادة لهم، ولا معرفة لأنها مقدمة العبادة وصفهم سبحانه بقوله: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[1]، لأن الأنعام بلا عقل، وهم بعقل لكن عطلوا عقولهم ولم يستفيدوا منها.

وبالجملة: أن العبادة هي الغاية القصوى لعالم التكوين والتشريع حيث إنه تعالى أرسل الرسل ليُعبد والعبادة موجبة لاستكمال النفوس.

ثم إن العبادة فضلاً عن كونها غاية وهدفاً لوجود الإنسان فهي حاجة ضرورية، لذا استطاع البشر أن يعيشوا بلا مستشفيات، بلا مدارس، بلا مؤسسات أمنية، بلا نظام، لكنهم لم يعيشوا بلا مواطن للعبادة، فالاكتشافات الجيولوجية والدراسات الآثارية اكتشفت المعابد عند أقدم التجمعات البشرية، وما ذلك إلّا لما تقدمه العبادة من طمأنينة واستقرار وارتباط بذاتٍ يعتقدها العابد عظيمة وقادرة على حماية العابد وتلبية حوائجه.

لذا تجد الخالي من العبادة يعيش اللاانتماء والضياع والتشتت والحيرة والخوف وعدم الاستقرار والطمأنينة.

الثالث: في الأمر بالاعتدال في العبادة:

العبادة فرائض ونوافل، والاعتدال فيها لا يتصور في الواجبات، لأنه لابد من الإتيان بها في وقتها وعند محلها فالفرائض ليس فيها مشقة بل يسيرة فهي خير وكرامة لمن عرف عللها وشؤونها، فخمس صلوات في اليوم والليلة، وصوم شهر في السنة، وحج في العمر على المستطيع، وخُمس الفاضل من المؤنة في الخُمس، وعشر أو نصف العشر في الزكاة.. إن افتراض ذلك لا أذى فيه ولا عسر.

فالاعتدال إذن في المستحبات وقد أمر الله تعالى نبيه بذلك حيث كان يصلي

١- سورة الأعراف: ١٧٩.

حتى تتورم قدماه بقوله سبحانه: ﴿طه. مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك فإن المنبتّ- يعني المفرط- لا ظهراً أبقى ولا ظهراً قطع، فاعمل عمل من يرجو أن يموت هرماً واحذر حذر من يتخوف أن يموت غداً)[٢].

أي إن هذا الدين شديد وقوي، فلا تسير فيه سيراً شديداً؛ لأن الإيغال هو الإمعان في السير، ولكن تأن ولا تستعجل، فإن المنبت أي المفرط كالذي سافر فانقطع به سفره وعطبت راحلته فهو عاجز عن مقصده، ولم يقض وطره وقد أعطب ظهره، وفي ذلك تشبيه رائع من النبي صلى الله عليه وآله، فالعابد المفرط إنما يستعمل بدنه في العبادة فإذا أوغل وفرط سيقع في محاذير الملل، وبُغض العبادة وإنهاك البدن، وتضييع حقوق النفس والأهل والأخوّة فإن للنفس حقا ، وللأهل حقا.

ثم إن لكل إنسان مزاجاً خاصاً، وطاقة محدودة وتوجه بقدر، فينبغي أن تكون العبادة تلائم مزاج وطاقة وتوجه كل شخص، ومنسجمة مع حقوق النفس والأهل والبدن وغير ذلك.

لذا أمر النبي صلى الله عليه وآله أن يكون العمل بما يناسب رجاء الموت هرماً فالقليل بمرور الأيام يكون كثيراً مع التقوى والشوق والإخلاص، أما الحذر من المعاصي والذنوب فكمن يخاف أن يموت غداً.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (اجتهدت في العبادة وأنا شاب، فقال لي أبي: يا بنيّ دون ما أراك تصنع، فإن الله عز وجل إذا أحب عبداً رضي عنه باليسير)[٣].

وعنه عليه السلام: (لا تكرهوا إلى أنفسكم العبادة)[٤].

١- سورة طه: ١.

٢- الكافي: ج٢ص٨٧.

٣- نفس المصدر: ج٢ص١١٠-١١١.

٤- نفس المصدر: ج٢ص١٠٩-١١٠.

الرابع : في كيف وكم العبادة:

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أفضل الناس من عشق العبادة وأحبها بقلبه وباشرها بجسده وتفرغ لها، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على عسر أم على يسر)[١].

وعنه عليه السلام قال: (في التوراة مكتوب: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي املأ قلبك غنى، ولا أكلك إلى طلبك، وعليّ أن أسد فاقتك، وأملأ قلبك خوفاً مني، وإنْ لا تفرغ لعبادتي أملأ قلبك شغلاً بالدنيا، ثم لا أسد فاقتك، وأكلك إلى طلبك)[٢].

وعنه عليه السلام: (أفضل العبادة إدمان التفكر في الله وفي قدرته)[٣].

وعن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: (من عمل بما افترض الله عليه فهو من خير الناس)[٤]، وفي حديث آخر: (فهو من أعبد الناس)[٥].

وعن الباقر عليه السلام: (أحب الأعمال إلى الله عز وجل ما داوم عليه العبد وإن قل)[٦].

إن من تأمل في الأحاديث المتقدمة وغيرها يستفيد أموراً منها:

١. إن أهم العبادة في إقامة الفرائض والإتيان بها تامة، وأنها من أحسن أفراد التقرب والتحبب إليه عز اسمه.

٢. بما أن إتمام الفرائض من غير خلل ونقص أمر ليس بالمستحيل لكنه صعب جداً، وربما لا يستطيع غير المعصوم أن يقول أنه قد أتم ما افترض عليه، فبالتالي لابد من أن تكون للعبد نوافل وأوراد (برنامج عبادي) لسد نقص الفرائض، وشكر المنعم سبحانه، وزيادة التقرب، وتكثير رصيد الحسنات، وتكفير السيئات، قال سبحانه: ﴿إن الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وغير ذلك من الدواعي الصحيحة والمقربة إلى القريب سبحانه، وهذه الخطة العبادية

١- الكافي: ج٢ص٨٣.

٢- نفس المصدر: ج٢ص٨٣.

٣- نفس المصدر: ج٢ص٥٥.

٤- نفس المصدر: ج٢ص٨١.

٥- نفس المصدر: ج٢ص٨٤.

٦- نفس المصدر: ج٢ص٨٢.

ينبغي أن تكون حاوية لأفراد العبادات من تفكر وصلاة وصوم وتلاوة قرآن وذكر ودعاء وزيارة وصدقة وغير ذلك مما يكون عمله في اليوم والليلة أو الشهر أو السنة، ويرجع في ذلك إلى الكتب المُعدّة لذلك.

٣. على المؤمن أن يُفعّل عبادة التفكر في الله تعالى وقدرته، وليس المقصود التفكر في ذات الله سبحانه وكنه صفاته فهو ممنوع شرعاً لأنه يورث الحيرة والدهشة واضطراب العقل، وإنما المراد التفكر في أفعاله وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه، فإنها توصل إلى معرفة كماله وجلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه وكمال علمه وحكمته، وإنه لم يخلق هذا الخلق عبثاً، فالتفكر مقدمة موصلة للإيمان الحقيقي.. بل لليقين، لذا جاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: إن التفكر يدعو إلى البر والعمل به)[1].

٤. إن مَن شَغَله طلب المعاش، أو الوظيفة، أو طلب العلم وغيرها ولم يكن متفرغاً لعبادة ربه سبحانه المشتملة على المستحبات، لابد له من التفرغ للفرائض والواجبات لعدم العذر فيها لأحد، فعليه أن يتأهب للصلاة في أوقاتها، وللصوم في شهره وهكذا.. ليكون مصداقاً للعبد المطيع المتفرغ لعبادة ربه المفروضة على الأقل، ولا يُحرم من فضيلة التفرغ ومن آثاره الجليلة في الدنيا والآخرة.

قوله عليه السلام:

(والزم الصمت تسلم)

أفاد الشيخ البهائي في التعليق على هذه الفقرة بما نصه: (أي تسلم من آفات اللسان والمعاصي الناشئة منه، وهي متكثرة جداً، فإنه ما من موجود ومعدوم وخالق ومخلوق ومعلوم وموهوم إلّا ويتناوله اللسان ويتعرض له بنفي أو إثبات، وهذه الخاصية لا توجد في بقية أعضاء الإنسان، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان

---

١ - الكافي: ج٢ص٥٥.

والأضواء، والأذن لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وأما اللسان فميدانه واسع جداً، وله في كل من الخير والشر مجال عريض)[١].

جاء رجل - والظاهر أنه معاذ بن جبل- إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أوصني، فقال: احفظ لسانك، قال: يا رسول الله أوصني، قال: احفظ لسانك، قال: يا رسول الله أوصني، قال: احفظ لسانك، ويحك وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلّا حصائد ألسنتهم)[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (قال رسول الله ﷺ: يعذّب الله اللسان بعذاب لا يعذب به شيئاً من الجوارح فيقول: أي رب عذبتي بعذاب لم تعذب به شيئاً، فيقال له: خرجت منك كلمة فبلغت مشارق الأرض ومغاربها، فسفك بها الدم الحرام، وانتهب بها المال الحرام، وانتهك بها الفرج الحرام، وعزتي وجلالي لأعذبنّك بعذاب لا أعذب به شيئاً من جوارحك)[٣]، ولعمري لقد حصل هذا ويحصل بفتاوى بعض المتعالمين الذين يكفّرون المسلمين، ومن الملوك والرؤوساء والسياسيين من المستكبرين الذي يعبدون الكراسي ولا يراقبون الله تعالى.

وفي وصية الإمام الكاظم عليه السلام لهشام: (يا هشام.. المتكلمون ثلاثة: فرابح وسالم وشاجب[٤]، فأما الرابح فالذاكر لله، وأما السالم فالساكت، وأما الشاجب فالذي يخوض في الباطل...)[٥] بل الساكت محسن لنفسه ولغيره كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: (لا يزال العبد المؤمن يُكتَبُ محسناً ما دام ساكتاً، فإذا تكلم كُتِبَ محسناً أو مسيئاً)[٦].

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: (إنما شيعتنا الخُرس)[٧].

١- الأربعون حديثا: ص٣١٠.
٢- الكافي: ج٢ص١١٥.
٣- نفس المصدر: ج٢ص١١٥.
٤- أي هالك.
٥- بحار الأنوار: ج١ص١٤٩.
٦- الكافي: ج٢ص١١٦.
٧- الكافي: ج٢ص١١٣.

أي الذين لا يتكلمون باللغو والباطل وفيما لا يعلمون، وفي مقام التقية فكلامهم قليل كأنهم خُرس.

والذي يجدر ذكره أن الصمت الممدوح ما كان فكراً ولم يكن سهواً وغفلةً، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: (كل سكوت ليس فيه فكرة فهو سهو)[١]، وعن الإمام الكاظم عليه السلام: (دليل العقل التفكر، ودليل التفكر الصمت)[٢].

إذن للصمت فضيلة عظيمة، بَيد أنه عرفت في المباحث السابقة وجوب الكلام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد يحرم السكوت عن إظهار أصول الدين وفروعه، وقد يستحب الكلام في الموعظة والإرشاد إلى المصالح، وفي إصلاح ذات البَين وقضاء حوائجهم وغير ذلك، وعليه قد يتبادر السؤال الآتي:

أيهما أفضل السكوت أم الكلام؟ وقد سئل فعلاً الإمام علي بن الحسين عليهما السلام: (عن الكلام والسكوت أيهما أفضل؟ فقال عليه السلام: لكل واحد منهما آفات، فإذا سلما من الآفات فالكلام أفضل من السكوت، قيل: وكيف ذلك يا ابن رسول الله؟ قال: لأن الله عز وجل ما بعث الأنبياء والأوصياء بالسكوت، إنما بعثهم بالكلام، ولا استُحقت الجنة بالسكوت، ولا استوجبت ولاية الله بالسكوت، ولا تُوُقّيت النار بالسكوت ولا تُجُنّب سخط الله بالسكوت، إنما ذلك كله بالكلام، ما كنت لأعدل القمر بالشمس إنك تصف السكوت بالكلام، ولست تصف فضل الكلام بالسكوت)[٣]، ما أروع ذيل الحديث! فالإمام عليه السلام يقول: إذا أردت وصف الصمت وصفته بالكلام، أما الكلام فلا يمكن وصفه بالسكوت.

فتحصل من كل ذلك أن لزوم الصمت حسن عما لا خير فيه ما لم يكن سهواً والكلام أحسن وأفضل في الدين والعلم والحكمة والصلاح والخير وردع الشر كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (... ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)[٤].

١- بحار الأنوار: ج٦٨ص٣٠٦.

٢- نفس المصدر: ج٦٨ص٣٠٦.

٣- وسائل الشيعة: ج١٢ص١٨٩.

٤- الكافي: ج٢ص٦٦٧.

وقوله عليه السلام:

(وقدّم لنفسك تغنم)

الغُنم: هو الفوز بالشيء، فمن قدم لنفسه فاز وأفلح، فلابد من عقيدة حقة، وعمل صالح، وورع عن المحارم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[٢] فالفوز له مقدمات توصل إليه، وموانع عن تحصيله، فعلى المؤمن العاقل، أن يأتي بالمقدمات، ويرفع الموانع، فإنه جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: (أيها الناس الآن الآن! من قبل الندم: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾)[٣].

وعن الإمام الحسين عليه السلام: (يا ابن آدم! إنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك، فخذ مما في يديك لما بين يديك، فإن المؤمن يتزود، والكافر يتمتع)[٤].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث: (إن المرء إذا هلك قال الناس ما ترك؟ وقالت الملائكة ما قدّم؟)[٥].

فالآخرة للقرار، والدنيا للبوار، والعجب كل العجب ممن يتزود للدنيا، ويفقر نفسه في الآخرة، فما هذا لعمري إلّا عكسٌ للمعادلة الصحيحة رأساً على عقب!!.

١- سورة العصر: ٢-٣.

٢- سورة البقرة: ١٩٧.

٣- ميزان الحكمة: ج٢ص٢٣٩٨.

٤- نفس المصدر: ص٢٣٩٨.

٥- الإرشاد: ج١ ص٢٩٦.

وقوله عليه السلام:

(وتعلّم الخير تعلم)

في هذا المقطع الشريف أمرٌ بالتعلّم، وجزمٌ بالنتيجة، وهي التوفر على العلم لأن (من طلب شيئاً ناله أو بعضه)[١]، هذا لمن لم يكن قاصراً من حيث وجود خلل في قواه العقلية والإدراكية، ولم يكن أحمقاً، وأيضاً فيه عمومٍ لكل خير، والظاهر أنه يريد الخير العلمي والعملي.

ومن نافلة القول الحديث عن فضل العلم وطلبه والعلماء، فالقرآن حافل وكذا السُنّة بذلك، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[٢] وقوله صلى الله عليه وآله: (مَن جاءه الموت وهو يطلب العلم ليُحيي به الإسلام كان بينه وبين الأنبياء درجة واحدة في الجنة)[٣]، وقول الإمام الباقر عليه السلام: (عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد)[٤].

وأما من العقل فاعلم: (إن المعقولات تنقسم إلى موجودة ومعدومة، والعقول السليمة تشهد بأن الموجود أشرف من المعدوم، بل لا شرف للمعدوم أصلاً، ثم الموجود ينقسم إلى جمادٍ ونامٍ، والنامي أشرف من الجماد، ثم النامي ينقسم إلى حساس وغيره، والحساس أشرف من غيره، ثم الحساس ينقسم إلى عاقل وغير عاقل، ولا شك أن العاقل أشرف من غيره، ثم العاقل ينقسم إلى عالم وجاهل، ولا شبهة في أن العالم أشرف من الجاهل، فتبين بذلك أن العالم أشرف المعقولات والموجودات، وهذا أمر يلحق بالواضحات)[٥].

١- نهج البلاغة: ج٤ص٩٢.

٢- سورة الزمر: ٩.

٣- بحار الأنوار: ج١ص١٧٤.

٤- الكافي: ج١ص٣٣.

٥- منية المريد: ص١٢٦.

تنبيه:

قال عز من قائل: ﴿فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[١]، روى الشيخ الطوسي أعلى الله مقامه عن الإمام الصادق عليه السلام: (إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة عبدي أكنت عالماً؟ فإن قال نعم، قال له: أفلا عَمِلْتَ بما عَلِمْتَ، وإن قال: كنت جاهلاً، قال: أفلا تعلّمت حتى تَعلم، فيخصمه، فتلك الحجة البالغة)[٢]، وعن النبي صلى الله عليه وآله: (أفٍّ لرجل - لكل مسلم- لا يفرغ نفسه في كل جمعة لأمر دينه فيتعاهده ويسأل عن دينه)[٣]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: (إنما يهلك الناس لأنهم لا يَسألون)[٤].

استناداً إلى هذه الأحاديث الشريفة وغيرها قال الفقهاء بوجوب تعلم المسائل الابتلائية على كل مكلف مثل كيفية الوضوء والصلاة، وأحكام الصوم، وكيف يستخرج الخمس ويدفع وكذا الزكاة، وأحكام العقود والتجارة للتاجر، والمسائل التي تخص المهن كالطبابة والتعليم، والعقود مع الدولة والمصارف ومسائل العملات وغيرها مما يكون في معرض ابتلاء المكلف، وحكموا أن الجاهل إذا لم يكن قاصراً فهو كالعامد، وأنه غير معذور أمام الله سبحانه وعليه فلا مندوحة من تعلم العلم الذي ليس للمكلف غنىً عن علمه، ولا يُعذَر لو جهله، فإنه غير متروك سدى ولا مخلوق هملاً.

قوله عليه السلام:

(وكن لله ذاكراً على كل حال)

الدوام على ذكر الله تعالى يخلق عند العبد حالة استشعار الحضور عند المولى الأقدس، والرقابة الإلهية منه تعالى، والأُنس به سبحانه، ولذلك أعظم الأثر في تحصيل الطمأنينة العقائدية والنفسية، فإنه سبحانه قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ

١- سورة الأنعام: ١٤٩.

٢- أمالي الطوسي: ص٩.

٣- الكافي: ج١ص٤٠.

٤- نفس المصدر: ج١ص٤٠.

قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[١]، وفي كبح جماح العدوَّيْن الرئيسَيْن للإنسان: النفس والشيطان، فإنه لا سبيل للتخلص من شرور النفس الأمارة بالسوء إلّا بالتوجه الدائم والانقطاع المستمر إليه جل وعز، وكذلك من الشيطان، وعدم الذكر له آثار مهلكة ووخيمة منها:

١. قرينية الشيطان: قال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[٢] أي نسبب ونقدر له شيطاناً يوسوس له ويغويه لأنه فرط بالذكر لانشغاله بالمحسوسات والمشتهيات.

٢. نسيان النفس، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٣] فلما نسوا حقه جعلهم ناسين لأنفسهم لم يسمعوا ما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلصها[٤]، ولا يخفى أن من حقه تعالى الطاعة والذكر.

٣. العيش الضنك، قال عز من قائل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ يعني عيشاً ضيقاً[٥]، وليس بالضرورة أن يكون من الناحية المادية، فقد يكون العيش الضيق من الناحية الروحية والنفسية، فقد جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: (ذِكرُ الله دواءُ إعلال النفوس)[٦]، والعمى هو البصري لكونه أعمى القلب في الدنيا.

واعلم أنه جاء في تفسير هذه الآية إن الذِّكْرَ: ولاية أمير المؤمنين عليه السلام[٧]، ولا منافاة، بل بينهما تمام الموائمة لأن ولاية علي عليه السلام داعية للطاعة والذكر.

ثم إنه سبحانه لم يرضَ من الذكر بالقليل بخلاف بعض العبادات والطاعات، بل لم يحدد للذكر حداً أو نصاباً وأراده كثيراً، فعن الإمام الصادق عليه السلام: (ما من شيء

١- سورة الرعد: ١٣.

٢- سورة الزخرف: ٣٦.

٣- سورة الحشر: ١٩.

٤- انظر تفسير الصافي: ج٦ ص٣٩٥.

٥- انظر تفسير الصافي: ج٧ص١٥٨.

٦- ميزان الحكمة: ج٢ ص٩٧٠.

٧- انظر الكافي: ج١ص٤٣٥.

إلّا وله حد ينتهي إليه إلّا الذكر، فليس له حد ينتهي إليه، فرض الله عز وجل الفرائض فمن أدّاهن فهو حدهن، وشهر رمضان فمن صامه فهو حده، والحج فمن حج فهو حده، إلّا الذكر فإن الله عز وجل لم يرضَ منه بالقليل ولم يجعل له حداً ينتهي إليه، ثم تلا هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾)[١].

روح الذكر:

بعد هذا يجب أن يعلم أن روح الذكر وحقيقته طاعة الله عز وجل، فعن الرسول الأكرم ﷺ: (مَن أطاعَ الله عز وجل فقد ذكر الله وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن)[٢]، وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: (﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ذكر الله عندما أحل وحرم)[٣].

وللذكر أقسام: ذكرٌ في النفس وفي الخلوة وفي العلن ولكل فضل، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (قال الله تعالى: ابن آدم اذكُرني في نفسك أذكرك في نفسي، ابن آدم اذكُرني في الخلاء أذكرك في خلاء، ابن آدم اذكُرني في ملاء أذكرك في ملاء خير من ملائك)[٤].

أذكار مهمة:

التهليل: فعن النبي ﷺ: (ما من الذكر شيء أفضل من قول لا إله إلّا الله، وما من الدعاء شيء أفضل من الاستغفار، ثم تلا ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾)[٥]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: (مَن قال لا إله إلّا الله مائة مرة كان أفضل الناس ذلك اليوم عملاً إلاّ من زاد)[٦].

١- الكافي: ج٢ص٣٦١.

٢- بحار الأنوار: ج٧٧ص٨٦.

٣- تفسير نور الثقلين: ج٤ص١٦٢.

٤- بحار الأنوار: ج٩٣ص١٥٨.

٥- الدعوات: ص٢٠.

٦- ثواب الأعمال: ص٢.

الاستغفار: قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[١]، وعن النبي ﷺ: (لكل داء دواء، ودواء الذنوب الاستغفار)[٢]، لذلك بالغت الروايات في جعل محطات للاستغفار بعد صلاة الفجر، وبعد العصر وعند النوم وفي السحر.

الصلاة على محمد وآل محمد: فهي من المنجيات المكفرات ومن أسباب قضاء الحاجات فعن الإمام الصادق عليه السلام: (مَن قال في يوم مائة مرة ربّ صلّ على محمد وعلى أهل بيته، قضى الله له مائة حاجة ثلاثون منها للدنيا وسبعون منها للآخرة)[٣].

تسبيح الزهراء عليها السلام: فهو يحقق الذكر الكثير لما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: (تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام من الذكر الكثير الذي قال الله عز وجل ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾)[٤]، وعنه عليه السلام: (تسبيح فاطمة عليها السلام في كل يوم في دبر كل صلاة أحبّ إليّ من صلاة ألف ركعة في كل يوم)[٥].

بقي شيء:

قد يظن ظانّ أن هناك أحوالاً يكون عليها الإنسان لا يستحسن ذكر الله فيها كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: (قال موسى عليه السلام: يا رب إني أكون في حال أُجلّك أن أذكرك فيها، قال: يا موسى اذكُرني على كل حال)[٦].

فذكره تعالى حسن وراجح على كل حال، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: (لا بأس بذكر الله وأنت تبول، فإن ذكر الله حسن على كل حال، فلا تسأم من ذكر الله)[٧].

١- سورة الأنفال: ٣٣.

٢- ثواب الأعمال: ص١٦٤.

٣- المصدر نفسه: ص١٥٨.

٤- الكافي: ج٢ص٥٠٠.

٥- المصدر نفسه: ج٤ص٤٣.

٦- من لا يحضره الفقيه: ج١ص٢٩.

٧- الكافي: ج٢ص٤٩٧.

النتيجة:

إن الذاكر محفوظ بالعناية الإلهية، وإن الذكر شرف وكرامة وعبادة لا يأباه إلّا محروم، وإنه لابد من تحصيل الذكر الكثير فإنه تعالى يقول: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾[1].

قوله عليه السلام:

(وارحم من أهلك الصغير)

إن للإنسان حاجات فطرية يمكن تقسيمها إلى :

١. بدنية كالحاجة إلى النوم والطعام والشراب.
٢. روحية معنوية كالحاجة إلى الإيمان والانتماء.
٣. نفسية كالحاجة للرحمة والحنان والحب.

وهذه الحاجات يحتاجها في جميع أدوار حياته إلّا أن الأخيرة يحتاجها في دور الطفولة بشكل أكبر، فالطفل الذي نشأ في جو من الرحمة والحنان والحب يتربى بوتيرة طبيعية وسليمة وتتغلغل في شخصيته تلك القيم، والذي يُحرم منها يشعر بالحرمان، والتشاؤم، والمظلومية فيكون على شفا جرف من الانحراف أو على الأقل السلبية في الحياة الاجتماعية العامة بل والخاصة. وهذا ما ثبت بالواقع وبالدراسات التربوية والنفسية.

لذلك أولت الشريعة المقدسة اهتماماً لافتاً لقيم الرحمة والحنان والعطف والحب في تربية الطفل، فعن النبي صلى الله عليه وآله: (أحبوا الصبيان وارحموهم)[2]، وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله قال: (مَن قبّلَ ولده كتب الله له حسنة، ومن فرّحه فرّحه اللهُ يومَ القيامة)[3]، وورد أن النبي صلى الله عليه وآله إذا سجد جاء الحسين عليه السلام فركب

١- سورة البقرة: ١٥٢.

٢- الوسائل: ج٣ص٢٢.

٣- الكافي: ج٦ص٤٩.

ظهره ثم حرك رجليه فقال: حل حل! فإذا أراد رسول الله ﷺ أن يرفع رأسه أخذه فوضعه إلى جانبه، فإذا سجد عاد على ظهره، وقال: حل حل! فلم يزل يفعل ذلك حتى فرغ النبي من صلاته، فقال يهودي: يا محمد إنكم لتفعلون بالصبيان شيئاً ما نفعله نحن، فقال النبي ﷺ: (أما لو كنتم تؤمنون بالله ورسوله لرحمتم الصبيان، قال: فإني أؤمن بالله ورسوله، فأسلم لما رأى كرمه مع عظم قدره)[١].

خط التأديب:

ثم إن هناك خطاً لابد أن يسير بموازاة خط الرحمة والحنان والحب وهو خط التأديب، فمن أراد براءة ذمته أمام الله سبحانه، وفلاح ولده، وعدم انقطاع عمله بعد الموت عليه أن يؤدب ولده في زمن صباه وحداثته لأنه أنسب الأوقات للتربية والتعليم والتأديب، فعن النبي ﷺ: (مثل الذي يتعلم في صغره كالنقش على الحجر، ومثل الذي يتعلم في كبره كالذي يكتب على الماء)[٢]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام في كتاب له لولده الإمام الحسن عليه السلام: (... إنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبّك...)[٣].

وهذا التأديب له مبادئ أساسية لابد أن يُربّى كل صبي وصبية عليها ذكرتها الأحاديث التربوية التالية:

١. عن النبي الأعظم ﷺ: (أدّبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم، وحب أهل بيته، وقراءة القرآن)[٤].

٢. عن الرسول الأكرم ﷺ: (علّموا أولادكم الصلاة إذا بلغوا سبعاً، واضربوهم عليها إذا بلغوا عشراً، وفرّقوا بينهم في المضاجع)[٥].

١- غرر الحكم ودرر الكلم، للآمدي: ص٢٩٢.

٢- كنز العمال: ج١٠ص٢٤٩.

٣- تحف العقول: ص٧٠.

٤- كنز العمال: ج١٦ص٤٥٦.

٥- ميزان الحكمة: ج١ص٥٦.

٣. عن الإمام الصادق عليه السلام: (ونحن نأمر صبياننا بالصوم بما أطاقوا من صيام اليوم، فإن كان نصف النهار وأكثر من ذلك أو أقل فإذا غلبهم العطش والغرث أفطروا حتى يتعودوا الصوم ويطيقوه ، فمرُوا صبيانكم إذا كانوا أبناء تسع سنين بما أطاقوا من صيام فإذا غلبهم العطش أفطَروا)[١].

٤. عن أمير المؤمنين عليه السلام: (علموا صبيانكم من عِلمنا ما ينفعهم الله به)[٢].

٥. عن الامام الصادق عليه السلام: (بادروا أحداثكم بالحديث...)[٣].

والذي نستنتجه من هذه الأحاديث الشريفة أن عملية التأديب والتربية يجب أن تتوفر على جنبتين: فكرية وعملية، أما الفكرية فأهم مبادئها:

١. حب النبي وأهل بيته صلوات الله عليهم فحبهم أجر الرسالة، والمرء مع من أحب.

٢. قراءة القرآن، فعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: (من قرأ القرآن وهو شاب مؤمن اختلط القرآن بلحمه ودمه وجعله الله عز وجل مع السَّفَرة الكرام البَرَرة، وكان القرآن حجيزاً عنه يوم القيامة)[٤]، أي يؤثر في ظاهره وباطنه، ويوجب استقامته، وتستقر في نفسه المواعظ الربانية، والنصائح القرآنية، استقراراً تاماً[٥].

٣. علوم أهل البيت وأحاديثهم بل وسِيَر حيواتهم الشريفة بما يناسب أعمار الأولاد لأن كلامهم أشرف الكلام وأحسنه وعلومهم أنفع العلوم وسيرهم وقصصهم من أحسن القصص.

١- الكافي: ج٤ص١٢٤. الغرث: الجوع.

٢- ميزان الحكمة: ج٤ص٣٦٨.

٣- نفس المصدر: ج٤ص٣٦٨.

٤- الكافي: ج٢ص٦٠٣.

٥- انظر شرح أصول الكافي: ج١١ص٢٣.

وأما العملية فأهم قيمها:

١. الصلاة، ليعتاد فإن الخير عادة، لأنها ستنهاه عن الفحشاء والمنكر.

٢. الصوم، فبه سينتصر على النفس وغرائزها ومشتهياتها، وهو من أهم محصلات التقوى وهي مقياس الكرامة عند الله تعالى.

وهنا نسأل: هل هناك منهج تربوي أفضل مما جاء به الإسلام المحمدي الأصيل؟

قوله عليه السلام:

(ووقّر منهم الكبير)

التوقير: التبجيل[١]، وبعبارة أوضح هو رفع الشأن والمنزلة، والذي يبدو أنه مرتبة عالية من الاحترام، والظاهر أن المراد بالكبر الإضافي إلى من هو أصغر منه.

ومثاله ما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (ما مشى الحسين بين يدي الحسن عليهما السلام قط، ولا بدره بمنطق إذا اجتمعا تعظيماً له)[٢]، ويحتمل أن يراد الكبير الشيخ، فعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: (بجّلوا المشائخ فإنّ من إجلال الله تبجيل المشايخ)[٣].

وكيفما كان فمضافاً إلى حسن تبجيل واحترام الكبير عقلا فقد ندب إليه الشرع المقدس، فعنه صلى الله عليه وآله: (من عَرف فضل كبير لسنّه فوقّره، آمنه الله من فزع يوم القيامة)[٤]، بل ورد عن الإمام السجاد عليه السلام تفصيل حقوق الكبير وذكر بعض علل ذلك فانه قال: (وحق الكبير لشيبة، وإجلاله لتقدمه إلى الإسلام قبلك، وترك مقابلته عند الخصام، ولا تسبقه إلى طريق ولا تتقدمه، ولا تستجهله، وإن جهل عليك احتملته وأكرمته لحق الإسلام وحرمته)[٥].

١- العين: ج١ص٤١٠.

٢- جامع احاديث الشيعة: ج١٦ص٢٤٠.

٣- الأمالي، للشيخ الطوسي: ٣١١.

٤- بحار الانوار: ج٧٢ص١٣٧.

٥- من لا يحضره الفقيه: ج٢ ص٦٣٥

بقي أن نعرف قيمة الشيب في الإسلام، وأنه تحفة منه تعالى لعبده المؤمن بما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: (ما رأيت شيئاً أسرع إلى شيء من الشيب إلى المؤمن، وإنه وقار للمؤمن في الدنيا ونور ساطع يوم القيامة به وقّر الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام فقال: ما هذا يا ربّ قال له: هذا وقار، فقال: يا رب زدني وقاراً)(١).

قوله عليه السلام:

(ولا تأكلنّ طعاماً حتّى تصدّق قبل أكله)

للصدقة في الإسلام معنى عام، وآخر خاص، فكل خير ومعروف صدقة لقوله صلى الله عليه وآله (كل معروف صدقة)(٢)، من حيث إنه يتصدق بهذا المعروف على نفسه أو غير ذلك، بل جاء عنه صلى الله عليه وآله: (ترك الشر صدقة)(٣) وهو معنى عدمي كما هو واضح.

أما الخاص فهو البذل والإنفاق للمحتاج، وللصدقة آثار جليلة على حياة الإنسان المعنوية والمادية، وتلك الآثار مرادات ومطلوبات لكل عاقل فضلاً عن المتقربين للمولى سبحانه ومن هذه الآثار:

١. استنزال الرزق، فعن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: (أكثروا من الصدقة تُرزقوا)(٤)، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (إذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة)(٥).

٢. دفع البلاء، عنه صلى الله عليه وآله: (الصدقة تدفع سبعين نوعاً من البلاء، أهونها الجذام والبرص)(٦).

٣. الصدقة دواء منجح للأمراض، لقوله صلى الله عليه وآله: (تصدقوا وداووا مرضاكم بالصدقة)(٧).

٤. منجاة من العذاب، فعنه صلى الله عليه وآله: (أرض القيامة نار ما خلا ظل المؤمن، فإن

١- أمالي الطوسي: ج٢ص٣١٠.

٢- الكافي: ج٤ص٢٦

٣- تحف العقول: ص٥٧.

٤- ميزان الحكمة: ج٢ص١٥٩٦

٥- نفس المصدر: ج٢ص١٥٩٦.

٦- نفس المصدر: ج٢ص١٥٩٥.

٧- نفس المصدر: ج٢ ص١٥٩٥.

صدقته تظله)[١]، وعنه ﷺ: (إن الصدقة لتطفئ غضب الرب)[٢]، وعن الإمام علي عليه السلام: (الصدقة جُنةٌ عظيمة وحجاب للمؤمن من النار)[٣].

بيد أن للصدقة آفات تأتي عليها وهي المن والأذى، قال سبحانه: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى﴾[٤]، وأيضاً السمعة والرياء فعن جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: (لا تتصدق على أعين الناس ليزكوك، فإنك إن فعلت ذلك فقد استوفيت أجرك، ولكن إذا أعطيت بيمينك فلا تطلع عليها شمالك، فإن الذي تتصدق له سراً يجزيك علانية)[٥].

والذي يجدر ذكره أن الإمام عليه السلام ذكر مؤكداً على صدقة الطعام، بل من حصة الطعام المُعدّة لولده، لأن النفس أشح شيء على طعامها، فربما يسهل التصدق بالمال الجزيل لكن أكل الإنسان يكون أثيراً، والطعام مما يحتاجه الغني والفقير، ولعظيم ثواب صدقة الطعام، وجاء عن الصادق عليه السلام أنه قال لسدير الصيرفي: (ما منعك أن تعتق في كل يوم نسمة؟ قلت: لا يحتمل مالي ذلك، قال: تطعم كل يوم مسلماً، فقلت: موسراً أو معسراً؟ قال: فقال: إن الموسر قد يشتهي الطعام)[٦].

قوله عليه السلام:

(وعليك بالصوم فإنه زكاة البدن وجُنّة لأهله)

الكلام هنا في أمور:

الأول: الصوم لغة الإمساك قال سبحانه:

﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[٧]، وشرعاً ترك المفطرات طول النهار بنية التقرب والتعبد لله سبحانه، وهو في شهر رمضان مما بُنِيَ عليه الإسلام، فعن النبي ﷺ: (بُنِيَ الإسلام على خمسة أشياء على الصلاة والزكاة والحج والصوم

١- الكافي: ج٤ ص٣.

٢- كنز العمال: ج٦ص٣٤٨.

٣- الخصال: ص٦٣٥.

٤- سورة البقرة: ١٢.

٥- تحف العقول: ص٣٠٥.

٦- الكافي: ج٢ص٢٠٢.

٧- سورة مريم: ٢٦.

والولاية)[١]، والوصية تعم المندوب كما هو واضح، إن للصوم خواصّاً منها:

١. إنه عبادة خفية، فكل صائم يستطيع الإفطار من حيث لا يراه أحد من البشر، لذا جاء عن سيدة نساء العالمين عليها السلام: (فرض الله الصيام تثبيتاً للإخلاص)[٢].
٢. أخفى الله تعالى بعض أجره مع كثرة ما ذكر له من ثواب وآثار، ويشهد لذلك ما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: (للصائم فرحتان: فرحةٌ عن إفطاره، وفرحةٌ عند لقاء ربه)[٣].
٣. خصّه تعالى بتشريف حيث نسبه له، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (قال الله تبارك وتعالى: الصوم لي وأنا أجزي به)[٤]، ولا يخفى ما في هذا الحديث من إشارة لأرباب القلوب الذي يطلبون الله وحده ولا يريدون حظاً غيره، فالصوم له، وعبارة لطلاب التجارة مع الله سبحانه فهو الذي يتولى الجزاء على الصوم، وسيعطي كما هو أهله فالكريم إذا أخبرك بذلك اقتضى أن يكون العطاء بحسب كرمه وعظمته وسعته.

الثاني: الصوم زكاة البدن

وهذا المعنى جاء عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في حديث: (ولكل شيء زكاة، وزكاة الأبدان الصيام)[٥]، وورد أن زكاة النعم بذله، والحُلي إعارته، والبيت إعداد موضع منه للضيافة وغير ذلك، فعلى هذا الأساس فزكاة البدن الصيام وهو تشبيه لأثر الصوم في البدن بأثر الزكاة في المال، وقد عرفت أن الزكاة تعني الطهارة والنماء، فكما أن الزكاة تصير سبباً لطهارة المال ونموه فكذا الصوم يطهر البدن من الذنوب، والنفس من الصفات الذميمة، وينمي الكمالات والسعادات[٦].

١- الكافي: ج٤ص٦٢
٢- علل الشرائع: ج١ص٢٤٨
٣- الكافي: ج٤ص٦٢.
٤- نفس المصدر: ج٤ص٦٣.
٥- نفس المصدر: ج٤ص٦٢
٦- انظر مرآة العقول: ج١٦ص١٩٩.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن الزكاة تطهر المال من الحرام والشبهات وهذا بملاحظة أحاديث (أوساخ الناس) ففي خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام: (ولم يجعل لنا في سهم الصدقة نصيباً أكرم الله رسوله صلى الله عليه وآله وأكرمنا أهل البيت أن يطعمنا من أوساخ الناس)[١]، فكذا الصوم يطهر البدن مما تكوّن من الحرام والشبهات، وهذا أيضاً بملاحظة حديث النبي صلى الله عليه وآله: (ما من مؤمن يصوم شهر رمضان احتساباً إلّا أوجب الله تبارك وتعالى له سبع خصال: أولها: يذوب الحرام من جسده، والثانية: يقرب من رحمة الله عز وجل، والثالثة: قد كفر خطيئة أبيه آدم، الرابعة: يهون الله عليه سكرات الموت، والخامسة: أمان من الجوع والعطش يوم القيامة، والسادسة: يطعمه الله عز وجل من طيبات الجنة، والسابعة: يعطيه الله عز وجل براءة من النار)[٢]. والقرينة على هذا الوجه أنه صلى الله عليه وآله نسب التزكية والتطهير للبدن وهذا لا يتنافى مع كون الصوم مطهراً للنفوس لأن آثار الصوم لا تنحصر بجهة كما هو واضح.

الثالث: الصوم جُنّة أو وقاية فكل ما وقى فهو جُنة[٣]:

والصوم جُنّة من الشهوات والخطيئات فقد كان النبي صلى الله عليه وآله يأمر الشباب الذين لا يستطيعون التعفف بالزواج بكثرة الصوم فهو لهم بمنزلة المانع عن الوقوع في الخطيئة، قال صلى الله عليه وآله: (يا معشر الشبان من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يقدر فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[٤].

والصوم وقاية من النار فعن النبي صلى الله عليه وآله: (الصوم جُنّة من النار)[٥]، وسبباً للمغفرة ودخول الجنة، فعنه صلى الله عليه وآله: (مَن صام يوماً تطوعاً ابتغاء ثواب الله وجبت له

١- الكافي: ج٨ص٦٣.

٢- الخصال: ص٣٤٦.

٣- انظر لسان العرب: ج١٣ص٩٤٨.

٤- مستدرك الوسائل: ج٧ص٥٠٧. والباءة: النكاح، والوجاء: الخصاء.

٥- الكافي: ج٤ص٦٢.

المغفرة)(١)، وعن الإمام الصادق عليه السلام: (إن الرجل ليصوم يوماً تطوعاً يريد به ما عند لله عز وجل فيدخله الله به الجنة)(٢)، فكيف بمن يصوم الدهر وهو صيام الخميس الأول والأربعاء الوسطى والخميس الأخير من كل شهر، فعن النبي صلى الله عليه وآله: (مَن صام ثلاثة أيام من كل شهر كان كمن صام الدهر كله)، لأن الله عز وجل يقول: ﴿مَن جاء بِالْحَسنةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِهَا﴾(٣)، ولنختم هذا المطلب بفضيلة لأمير المؤمنين عليه السلام فإنه قال: (وحبّب إليّ الصوم بالصيف وقرى الضيف، والضرب في سبيل الله بالسيف)(٤).

قوله عليه السلام:

(وجاهد نفسك)

الكلام هنا يقع في أمور:

الأول: في حقيقة النفس:

وهي ما يُعبر عنها كل واحد منا بقول: أنا، واختلف في كنهها اختلافاً عظيماً، بل هي من معضلات المسائل بعد ذات الله تعالى، وهي في القرآن الكريم تلك المخلوقة التي سواها الله تعالى وألهمها طريق الهدى والفجور، وأضاف إليها التزكي والتدسي، قال عز من قائل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(٥)، وقال سبحانه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾(٦)، فمن ذلك يظهر أنها موجود غيبيّ عبر عنه الحكماء بالجوهر المتعلق بالبدن بنحو يوجب اتحاداً ما معه، وهو التعلق التدبيري، إذ حقيقة النفس من أخفى الأشياء، ولابن أبي الحديد:

١- أمالي الصدوق: ص٤٤٣.

٢- الكافي: ج٤ص٦٣

٣- دعائم الإسلام: ج١ص٢٨٣.

٤- مستدرك الوسائل: ج٧ص٥٠٥

٥- سورة الشمس: ٧-٨.

٦- سورة الشمس: ٩-١٠

قد حار في النفس جميع الورى ... والفكر فيها قد غدا ضائعا
وبرهن الكل على ما ادّعَوا ... وليس برهانهم قاطعا
من جهل الصنعة عجزاً ... فما أجدره أن يجهل الصانعا

وقد يعبر عنها بلغة الدين بالروح والقلب وفي الفلسفة بالذات. نعم الذي يبدو أن النفس هي حقيقة الإنسان وأن البدن لها بمنزلة الآلة.

ثم إن النفس لها قوى كالعاقلة والشهوية والغضبية والذي يجده كل إنسان أن بين قوى النفس المتعددة مدافعة وفعالية فالعقل يريد شيئاً، والشهوة تريد آخر وهكذا.

الثاني: في أقسام النفس:

الظاهر أن كل نفس عاقلةٍ ملهمةٌ لقوله تعالى: ﴿ونفْسٍ وما سوّاها. فألْهَمَها فُجُورَها وتقْوَاها﴾[١]، غير أن هذه النفس التي تعرف طريق البر وطريق الفجور لها أقسام:

١. النفس الأمّارة بالسوء، قال سبحانه: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢]، وهي تلك النفس التي اضمحلت قوتها العاقلة وأذعنت لشهواتها وغرائزها، فهي تطلب مراداتها بأي سبيل ولو كان حراماً وقبيحاً.

٢. النفس اللوّامة، قال تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[٣]، وهي التي تلوم صاحبها عند الخطأ والخطيئة إذا هزمت في منازعتها مع شهواتها وغرائزها ويحصل لها ندم وتألم وحزن، عن الإمام الصادق عليه السلام: أنه قال: (من سرّته حسنتُه وساءته سيّئتُه فهو مؤمن)[٤]، ففي النفس اللوّامة روح إيماني عقلي، ووجدان أخلاقي وضمير إنساني يحصل بسببه لوم عند الذنب، وتحفيز للتوبة والصلاح.

٣. النفس المطمئنّة: قال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ

١- سورة الليل: ٧.
٢- سورة يوسف: ٥٣.
٣- سورة القيامة: ٢.
٤- الكافي: ج٢ص٢٣٢.

راضيةً مَّرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[١]، وهي تلك النفس الذي انتصر فيها العقل واستقر فيها الإيمان فصارت به مستقرة مطمئنة، وانقادت قواها وغرائزها وشهواتها لإيمانها وعبوديتها لمولاها، وهي أشرف النفوس وأعزها بحق عقيدتها، وثقتها بوعد ربها، وبالذكر.

وهذه الأقسام تسمى أوصافاً للنفس أو مراتب لها وليس في ذلك بأس، فقد يكون إنسان في مرحلة من حياته صاحب نفس أمّارة فيعمل على تزكيتها فترتقي فتكون لوّامة، أو من اللوّامة لتصبح مطمئنّة كل ذلك ممكن، وربما والعياذ بالله تعالى يكون صاحب نفس لوامة فتنتكس بالمعصية والحرام إلى أمارة بالسوء.

بل قد تكون لكل قسم من أقسام النفس مراتب ودرجات، فليس كل نفس أمّارة بالسوء بمستوى واحد من السوء، ولا كل لوّامة بمستوى واحد من الإيمان وكذلك المطمئنّة، وعليه لابد من الترقّي والتدرّج في مستويات النفس الكريمة ومحاولة الوصول لأعلى المراتب والمستويات.

الثالث: في جهاد النفس:

الجهاد مشتق من الجهد وهو بفتح الجيم المشقة، وبضمها الطاقة، وفي الشرع استفراغ الوسع وبذل الجهد، وتحمّل المشاق في محاربة العدو ومدافعته، وعليه فجهاد النفس محاربة مطالبها غير المشروعة فهي أعدى الأعداء، فطاعتها في غير ما أحل الله تعالى سببُ المهالك في الدنيا والعذاب المقيم في الآخرة، فلابد من اتخاذ العدو عدواً، لذا جاء عن الإمام الصادق عليه السلام إن النبي صلى الله عليه وآله (بعث سرية فلما رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي الجهاد الأكبر، قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس)[٢]، فلابد للعاقل من كبح جماح نفسه ولجم هواها، وهذا لا يعني كبت الغرائز والشهوات بل تهذيبها وتسييرها وفق العقل والشرع فإنه تعالى لم يحرّم شيئاً إلّا وأحلّ أشياء، مثلا حرم الزنا لكنه حلل التزويج

١- سورة الفجر: ٢٧-٣٠.

٢- الكافي: ج٥ ص١٢

دواماً وانقطاعاً، ومُلك اليمين، حرّم الخمر الخبيث، وحلّل أنواعاً من العصائر والمشروبات الطيبة، حرّم الغيبة والنميمة، وسوّغ المفاكهة والممالحة والمزاح اللائق، وهكذا مما لا يحصر.

اعلم أن أول خطوة في سبيل مجاهدة النفس هي العزم وهو أن يتخذ قراراً بترك المعاصي وأداء الواجبات وتدارك ما فاته في أيام حياته، وهذا يعني أن يكون الإنسان عاقلاً وشرعياً ينظم سلوكه وفق ما يتطلبه الشرع، وهنا ذكر علماء الأخلاق أموراً ضرورية للمجاهدة:

١. **المشارطة:** وهي أن يشارط المجاهد نفسه في أول اليوم أن لا يرتكب عملاً مخالفاً لأوامر الله تعالى، وترك الذنب في يوم واحد عمل يسير، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (ما من يوم يمر على ابن آدم إلا قال له ذلك اليوم: يا ابن آدم أنا يوم جديد وأنا عليك شهيد فقل فيّ خيراً واعمل فيّ خيراً، أشهد لك به يوم القيامة فإنك لن تراني بعده أبداً)[١].

٢. **المراقبة:** وهي التنبه (طول مدة المشارطة) إلى الالتزام بمقتضاها، فإذا حصلت وسوسة لمخالفة المشارطة بارتكاب ذنب فليعلم أنها من الشيطان، فادفع ذلك الحديث بالاستعاذة واللعن، ويتذكر أنه قد شارط النفس على أن لا تعصي المُنعم الكريم الذي تفضّل ومنح وسلّم ودفع ولطف... وليس من اللائق عدم الوفاء.

٣. **المحاسبة:** وهي أن يحاسب المرء نفسه في آخر اليوم ليرى هل أدى ما اشترط على نفسه، فإن كان وفياً شكر الله تعالى على توفيقه، وإن كان نقض وأذنب استغفر الله تعالى وندم وعزم، وعمل من الصالحات والحسنات المكفرات الماحيات للسيئات، وإليك بعض الأحاديث في المحاسبة عن الإمام الصادق عليه السلام: (فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا فإن في القيامة خمسين موقفاً كل موقف مثل ألف سنة مما تعدون ثم قرأ الآية: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾)[٢].

١- الكافي: ج٢ ص٥٢٣.

٢- الكافي للكليني: ج٢ ص٥٣٣.

وعنه عليه السلام: (إذا أويت على فراشك فانظر ما سلكت في بطنك وما كسبت في يومك واذكر إنك ميت وإن لك معاداً)[١].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام : (ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم فإن عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل سيئاً استغفر الله وتاب إليه)[٢].

وبعد هذا اليوم يوم آخر سيكون عمل الغد أيسر من عمل اليوم، فبعد المواظبة على هذا العمل مدة من الزمن سيتحول إلى مَلَكَة إن شاء الله تعالى، ويشعر المجاهد بلذة الأنس بالله تعالى والإقبال على طاعته وترك معاصيه وهو وحده وليّ التوفيق.

قوله عليه السلام:

(واحذر جليسك واجتنب عدوك)

هذه من العبائر الواضحة في الوصية المباركة، والذي يعن إلى الفكر في معناها: بني لا تكن مطمئناً لجليسك فربما يكون عيناً لظلمة عليك، أو أنه قد يرتكب ذنباً تكون عليك منه تبعة كالاغتياب ويناسب ذلك ما جاء عن الإمام الحسن عليه السلام أنه قال لرجل: (إياك أن تمدحني فأنا أعلم بنفسي منك، أو تكذبني فإنه لا رأي لكذوب، أو تغتاب عندي أحداً، فقال له الرجل: ائذن لي في الانصراف، فقال عليه السلام: نعم إذا شئت)[٣].

أما بالنسبة لاجتناب العدو فهذا إذا لم يصل منه سوء إليك فإن العافية والسلامة مع عدم إقحام النفس في معاداة الرجال، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما كاد جبرئيل عليه السلام يأتيني إلّا وقال: يا محمّد اتق شحناء الرجال وعداوتهم)[٤] لذا قيل ألف صديق ولا عدو واحد.

١- الدعوات للراوندي: ص١٢٣.

٢- الكافي: ج٢ ص٤٥٣.

٣- تحف العقول: ص٢٣٦.

٤- الكافي: ج٢ ص٣٠٢.

قوله عليه السلام:

(وعليك بمجالس الذِّكر)

إن بعض التتبع لآثار أهل البيت عليهم السلام يقود المرء إلى أن مجالس الذكر تطلق على:

١. مجالس التحميد والتسبيح والتهليل والتكبير وتلاوة القرآن ونحو ذلك وهذا هو الذي يتبادر من لفظة الذكر.

٢. مجالس الحلال والحرام، أي مجالس التفقّه في العبادات والمعاملات، جاء عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: (يسير الفقه خيرٌ من كثير العبادة)[١].

٣. مجالس الوعظ والإرشاد لما فيها من الذكر والتذكر.

بعد هذا فاعلم أن مجالس الذكر من الشرف والكرم والقرب بمكان، وورد فيها أحاديث داعية ومبشرة، فعن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: (بادروا إلى رياض الجنة، قيل: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: حَلَقُ الذكر)[٢]، وعنه صلى الله عليه وآله: (إن الملائكة ليمرّون على حَلَق الذكر فيقومون على رؤوسهم، ويبكون لبكائهم، ويؤمنون على دعائهم فإذا صعدوا إلى السماء، يقول الله: يا ملائكتي أين كنتم؟ وهو أعلم، فيقولون: ربنا إنا حضرنا مجلساً من مجالس الذكر، فرأينا أقواماً يسبحونك ويمجدونك ويقدسونك، ويخافون نارك، فيقول الله سبحانه: يا ملائكتي أذودها عنهم، وأشهدكم إنّي قد غفرت لهم، وآمنتهم مما يخافون، فيقولون: ربنا إن فيهم فلاناً، وإنه لم يذكرك، فيقول الله سبحانه، قد غفرت له بمجالسته لهم، فإن الذاكرين من لا يشقى بهم جليسهم)[٣].

ثم إن تسمية هذه المجالس برياض الجنة، إما تسمية للسبب باسم المسبب فالجلوس فيها سبب لدخول الجنة، وإما أنها رياض الجنة حقيقة بأن يكون المراد دار القرب منه جلّ اسمُه.

١- المعجم الكبير: ج١ ص١٣٦.

٢- الوسائل: ج٧ ص٢٣٠.

٣- مستدرك الوسائل: ج٥ ص٢٨٩.

ولا يخفى أن مجالس الحسين عليه السلام من أكمل مصاديق مجالس الذكر، لأن فيها ذكر الله تعالى، وتفقهاً في الحلال والحرام، وإرشاداً ودعوة إلى الله تعالى بسبيل حكمة وموعظة حسنة بالمزج بين العقل والمعرفة والحب والعاطفة لإيصال النفوس إلى مدارج الكمال.

قوله عليه السلام:

(وأكثر من الدعاء)

الدعاء هو الرغبة إلى الله تبارك وتعالى والسؤال والطلب مما عنده، وقد يطلق على الذكر كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله: (... وأفضل الدعاء الحمد لله)[1]، ويمكن أن يوجه بأنه تعرض وسؤال لطيف كمن يقول: لغنيّ كريم: أنت بعيد عن التقصير، أو أنت تستحق الشكر، فكأنه تعرض لسؤاله وأراد ذلك لذا قال الشاعر:

إذا أثنى عليك المرءُ يوماً ... كفاك من تعرضه الثناء

وينبغي هنا رسم أمور:

١. إن للدعاء فضل عظيم فهو عبادة وتركه استكبار، قال الإمام الباقر عليه السلام: (إن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِين﴾ قال: هو الدعاء وأفضل العبادة الدعاء...)[2].

فحقيقة الدعاء التسليم لله تعالى والحاجة إليه، والإيمان المطلق بحول الله تعالى وقوته وقدرته على كل شيء وبعبارة أخرى هو توجه من العبد لمعبود قادر على كل شيء.

وهو طريق موصل إلى خزائن الله تعالى التي لا تنفذ، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: (الدعاء مفاتيح النجاح ومقاليد الفلاح...)[3]، أي هو مفتاح لجميع المقاصد الدنيوية والأخروية.

١- مستدرك الوسائل: ج٥ ص٣٦٣.

٢- الكافي: ج٢ ص٤٦٧.

٣- الكافي: ج٢ ص٤٦٨.

وهو سلاح المؤمن فعن الإمام الصادق عليه السلام: (قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الدعاء سلاح المؤمن وعمود الدين ونور السموات والأرض)[١].

وبه يدفع البلاء ويرد القضاء، فعن الإمام الصادق عليه السلام: (الدعاء يرد القضاء بعدما أبرم إبراماً، فأكثر من الدعاء فإنه مفتاح كل رحمة، ونجاح كل حاجة، ولا ينال ما عند الله إلا بالدعاء، وإنه ليس باب يكثر قرعه إلا يوشك أن يفتح لصاحبه)[٢].

٢. لابد للداعي من معرفة المدعو، فقد يظن الداعي أنه تعالى موجود في السماء فقط، أو أنه جسم له يد أو أذن أو عين أو رجل يضعها في يوم في جهنم عندما تقول هل من مزيد، فتقول قط قط ، أو جالس على العرش، أو أنه سيُرى في الآخرة، ونحو ذلك، فمن يدعو رباً كذلك لا يدعو الله سبحانه في الواقع فلا يستجيب له، روي عن الإمام الصادق عليه السلام: (إنه قيل له: ما بالنا ندعو الله فلا يُستجاب لنا؟ فقال: لأنكم تدعون من لا تعرفون)[٣].

وعلى الداعي مراعاة أدب الدعاء والمسألة وفي ذلك، جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: (إياكم أن يسأل أحدكم ربه شيئاً من حوائج الدنيا والآخرة حتى يبدأ بالثناء على الله، والمدحة له، والصلاة على النبي وآله، والاعتراف بالذنب ثم المسألة)[٤].

وليس هناك أدعية ومناجات ومسائل فيها معرفة لله عز وجل وأدب في الابتهال والتضرع كما جاء في أدعية أهل البيت عليهم السلام، مثالاً لذلك دعاء كميل أو دعاء الحسين عليه السلام في يوم عرفة، أو المناجات الشعبانية لأمير المؤمنين عليه السلام، أو ما جاء في الصحيفة السجادية عليهم سلام الله جميعاً.

١- الكافي: ج٢ ص٤٦٨.

٢- الكافي : ج٢ ص٤٧٠.

٣- فلاح السائل: ص١١٧.

٤- مستدرك الوسائل: ج٥ ص٢١٦.

٣. إن استجابة الدعاء لها شروط، فليس كل دعاء مستجاباً، ومن هذه الشروط:

أ. الرزق الحلال، فعن النبي ﷺ: (مَن أحبَّ أن يُستجاب دعاؤه فليطِبْ مَطعمهُ ومكسبَهُ)[١].

ب. تقديم العمل من صلاة أو صوم أو ذكر أو صدقة ونحوها، فعن النبي ﷺ: (يا علي الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر)[٢].

ج. أن لا يدعو بمعصية كقطيعة الرحم، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: (يا صاحب الدعاء لا تسأل عما لا يكون ولا يحل)[٣].

د. أن لا يناقض الحكمة الإلهية، فكذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام: (إن كرم الله سبحانه لا ينقض حكمته فلذلك لا يقع الإجابة في كل دعوة)[٤].

هـ. أن يتطهر الداعي من الذنوب التي ترد الدعاء، فعن الإمام زين العابدين عليه السلام: (... والذنوب التي ترد الدعاء: سوء النية، وخبث السريرة، والنفاق مع الإخوان، وترك التصديق بالإجابة، وتأخير الصلوات المفروضات حتى تذهب أوقاتها، وترك التقرب إلى الله عز وجل بالبر والصدقة، واستعمال البذاء والفحش في القول)[٥].

وبالجملة: إن الله تعالى حَييّ كريم يستحيي من عباده، فلا يترك الداعي بلا نحو إجابة، فعن الإمام زين العابدين عليه السلام: (المؤمن من دعائه على ثلاث: إما أن يُدخر له، وإما أن يُعجّل له، وإما أن يُدفع عنه بلاء يريد أن يصيبه)[٦]، لذا جاء عن النبي الأكرم ﷺ: (إن أعجز الناس من عجز عن الدعاء)[٧].

١- سفينة البحار: ج٢ ص٤٤٨-٤٤٩.

٢- الدعوات، الراوندي: ص١٩.

٣- الخصال: ص٦٣٥.

٤- منتخب ميزان الحكمة: ص١٨٣.

٥- وسائل الشيعة: ج١٦ ص٢٨٢.

٦- تحف العقول: ص٢٨٠.

٧- أمالي الطوسي: ص٨٩.

قوله عليه السلام:

(فاني لم آلك يا بني نصحاً وهذا فراق بيني وبينك)

أي لم أمنعك النصح، أو لم أقصر في نصحك، فإنه عليه السلام رسم له خارطة طريق الحياة الكريمة التي أنزل الله تعالى من أجلها الكتب، وأرسل الرسل وبعث الأنبياء ونصب الحجج بحكمة معروفة عنه عليه السلام وببلاغة معهودة، وبالحقيقة إن هذه الوصية لجميع شيعة وموالي ومحبي أمير المؤمنين عليه السلام بل لجميع المسلمين، لأنه الأب الثاني لجميع الأمة بعد الأب الأول الرسول الأكرم صلوات الله على محمّد وعلى آله الطاهرين صلاة دائمة زاكية نامية لا تنقطع أبداً تكون لله تعالى رضاً ولحق محمّد وآل محمّد أداء وقضاء والحمد لله رب العالمين على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم.

تم ذلك

في ٢٩ ربيع الثاني ١٤٣٤هـ

الفهـــــرس

المصـــــــــــــادر

١. القرآن الكريم.
٢. الأحاديث والآثار لابن أبي شيبة العبسي.
٣. الأخلاق والآداب الإسلامية مؤسسة محمد الأمين.
٤. الأربعون حديثاً للشيخ البهائي العاملي.
٥. الإرشاد للشيخ المفيد.
٦. إرشاد القلوب للديلمي.
٧. الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر العسقلاني.
٨. الأصول الستة عشر لمحمد بن المثنى.
٩. الاقتصاد في ما يتعلق بالاعتقاد للشيخ الطوسي.
١٠. أقرب الموارد للشرتوني.
١١. الأمالي للشيخ الصدوق.
١٢. الأمالي للشيخ الطوسي.
١٣. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل للشيخ ناصر مكارم الشيرازي.
١٤. بحار الأنوار للعلامة المجلسي.
١٥. تاج العروس للزبيدي.
١٦. التبيان في تفسير القرآن للشيخ الطوسي.
١٧. تحف العقول للحراني.
١٨. التفسير الصافي للفيض الكاشاني.
١٩. تفسير القرطبي.
٢٠. التفسير الكبير للرازي.
٢١. تفسير مجمع البيان لأمين الإسلام الطبرسي.
٢٢. تفسير نور الثقلين لعبد علي بن جمعة العروسي.
٢٣. تنبيه الخواطر للشيخ ورام.

٢٤. تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي.
٢٥. تهذيب اللغة للأزهري.
٢٦. التوحيد للشيخ الصدوق.
٢٧. ثواب الأعمال للشيخ الصدوق.
٢٨. جامع أحاديث الشيعة للسيد البروجردي.
٢٩. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.
٣٠. جامع الأخبار للشعيري.
٣١. جامع السعادات للمولى النراقي.
٣٢. الجعفريات لعلي بن جعفر العُريضي.
٣٣. جواهر الكلام للشيخ محمد حسن النجفي.
٣٤. حق اليقين للسيد عبد الله شبر.
٣٥. خصائص الأئمة للشريف الرضي.
٣٦. الخصال للشيخ الصدوق.
٣٧. الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي.
٣٨. دعائم الإسلام للقاضي أبو حنيفة النعمان الفاطمي.
٣٩. الدعوات لقطب الدين الراوندي.
٤٠. رسالة الحقوق للإمام علي بن الحسين عليه السلام.
٤١. الرعاية في علم الدراية للشهيد الثاني.
٤٢. سنن ابن أبي داود.
٤٣. سنن الترمذي.
٤٤. سنن الدارمي.
٤٥. السنن الكبرى للبيهقي.
٤٦. سيرة ابن هشام.
٤٧. سيرة أعلام النبلاء للذهبي.
٤٨. السيرة الحلبية للحلبي.

٤٩. شرح أصول الكافي للمازندراني.
٥٠. شرح الباب الحادي عشر للمقداد السيوري.
٥١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.
٥٢. شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني.
٥٣. الصحاح للجوهري.
٥٤. صحيح البخاري.
٥٥. صحيح مسلم.
٥٦. الصحيفة السجادية للإمام علي بن الحسين عليه السلام.
٥٧. الصواعق المحرقة لابن حجر العسقلاني.
٥٨. عمدة القاري للعيني.
٥٩. عوالي اللآلي لابن أبي جمهور الأحسائي.
٦٠. العين للفراهيدي.
٦١. عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق.
٦٢. عيون الحكم والمواعظ لعلي بن محمد الليثي.
٦٣. غرر الحكم للآمدي.
٦٤. فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني.
٦٥. فتح القدير للشوكاني.
٦٦. الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري.
٦٧. فقه السنة لسيد سابق.
٦٨. الفقه للمغتربين للسيد السيستاني.
٦٩. فلاح السائل لابن طاووس.
٧٠. القاموس المحيط للفيروز آبادي.
٧١. قصص الأنبياء للجزائري.
٧٢. الكافي للشيخ الكليني.
٧٣. الكامل في التاريخ لابن الأثير.

٧٤. الكشاف للزمخشري.
٧٥. كشف الغطاء للشيخ جعفر النجفي.
٧٦. كشف الغمة للاربلي.
٧٧. كفاية الأصول للآخوند الخراساني.
٧٨. كنز العمال للمتقي الهندي.
٧٩. لسان العرب لابن منظور المصري.
٨٠. مجمع البحرين للطريحي.
٨١. مجمع الزوائد للهيثمي.
٨٢. المحاسن للبرقي.
٨٣. المحجة البيضاء للفيض الكاشاني.
٨٤. مرآة العقول للعلامة المجلسي.
٨٥. المسائل المنتخبة للسيد السيستاني.
٨٦. مستدرك سفينة البحار لعلي النمازي.
٨٧. المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري.
٨٨. مستدرك وسائل الشيعة للنوري الطبرسي.
٨٩. مسند أبي داود.
٩٠. مسند أحمد بن حنبل.
٩١. المصباح للكفعمي.
٩٢. معاني الأخبار للشيخ الطوسي.
٩٣. المعجم الأوسط للطبراني.
٩٤. المعجم الصغير للطبراني.
٩٥. معجم مقاييس اللغة لابن فارس.
٩٦. مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني.
٩٧. مناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب.
٩٨. من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق.

٩٩. منتخب ميزان الحكمة لمحمد الريشهري.
١٠٠. منهاج الصالحين للوحيد الخراساني.
١٠١. منية المريد في آداب المفيد والمستفيد للشهيد الثاني.
١٠٢. موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام لهادي النجفي.
١٠٣. الموطأ لمالك بن أنس.
١٠٤. ميزان الحكمة لمحمد الريشهري.
١٠٥. الميزان في تفسير القرآن للعلامة الطباطبائي.
١٠٦. نهج البلاغة لأمير المؤمنين عليه السلام.
١٠٧. الوافي للفيض الكاشاني.
١٠٨. وسائل الشيعة للحر العاملي.
١٠٩. وفيات الأعيان لابن خلكان.
١١٠. ينابيع المودة للقندوزي الحنفي.

هذه المصادر على الطبعات الموجودة في قرص أهل البيت عليهم السلام- الإصدار الأول.